# 26

هناك على الطبقة العليا من مبنى قصر العدل الاتحادي في شارع بنسلفانيا، كان أحد الآثار الصامدة المتبقية من الثورة الريغانية يطوف أرجاء غرفه الواسعة. فكبير القصاة لورنس اتش سلبرمان لمحكمة الاستئناف الأمريكية بمقاطعة كولومبيا كان عاكفاً على متابعة الجدل الدائر حول أسلحة الدمار الشامل في الصحافة عن كثب. كان سلبرمان، وهو في الـ 68 من العمر، عضواً في ثانية أهم وأميز المحاكم في الولايات المتحدة بعد المحكمة العليا. وقد ظلت المحكمة أحد معاقل الليبرالية إلى أن أقدم ريغان على سلسلة من التعيينات الدورية المحافظة المتعاقبة بولاية كولومبيا - حيث جرى تعيين أنتونين سكاليا الذي مـ لبث أن انتقل إلى المحكمة العليا؛ روبرت بورك الذي قوبل تعيينه عضواً في المحكمة العليا برفض مجلس الشيوخ؛ كنث ستار الذي صار المستشار المستقل الذي تولى التحقيق في قضية علاقة الرئيس كلنتون بمونيكا لونسكي؛ وسلرمان، في 1985.

كان الرجل لا يزال هناك بعد نحو عقدين في موقعه الرفيع، بمعنى أنه لم يكن ملزماً بالعمل إلا مدة ثلاثة أشهر في السنة.

كان سلبرمان هذا يرى كلاً من تشيني ورمسفلد صديقاً شخصياً حميماً. وقد ظل نائب مدع عام خلال الأشهر الأخيرة من إدارة نكسون ومدعياً عاماً بالوكالة خلال جزء من دارة فورد، وتعاون تعاوناً وثيقاً مع نائب الرئيس ووزير الدفاع الحاليين.

لم يكن سلبرمان غريباً عن عالم الاستخبارات. فعلى جدار إحدى غرف مكتبه ثمة كانت صورة له مع الرئيس فورد ورمسفلد. في تلك الأيام، كان رمسفلد، رئيس جهاز عاملي بيت أبيض فورد، دائباً على إقناع سلبرمان، النائب العام بالوكالة، بالانتقال إلى البيت الأبيض لتولي منصب قيصر جهاز الاستخبارات. حين ألمح رمسفلد تلميحاً مشيباً بالغموض إلى احتمال تولي إدارة وكالة الاستخبارات المركزية بعد ستة أشهر من الاصطلاع بوظيفته في البيت الأبيض، اعتذر سلبرمان. لم ير أن من الممكن إدارة الاستخبارات من البيت الأبيض ولو لمدة ستة أشهر. وبعد ما يزيد على ربع قرن من

الزمن، كان سلبرمان هذا هو الذي كان شاهداً على قسم رمسفلد وزيراً للدفاع في المكتب البيضوي في اليوم السادس من رئاسة بوش، يوم 26 كانون الثاني/يناير 2001.

لم يفاجأ سلبرمان على الإطلاق حين تلقى، بعد يومين فقط من شهادة ديفد كي أمام الكونغرس التي قال فيها: "جميعنا تقريباً كنا على خطأ،" مخابرة هاتفية من نائب الرئيس. وفي إحدى المقابلات تحدث سلبرمان عن الحديث الذي جرى بينهما.

قال تشيني لسلبرمان عبر الهاتف: "نريد أن نشكل لجنة تنظر في وضع معشر أجهزة الاستخبارات لتقرر ما إذا كانت هذه الأجهزة ناجحة في تقويم مسألة أسلحة الدمار الشامل في العراق تقويماً سليماً". كان تشيني يريد من سلبرمان المشاركة في رئاسة اللجنة.

لم يكن سلبرمان يجد أي نوع من الحرج في مناداة نائب رئيس الولايات المتحدة باسمه الأول، إذ قال: "أعتقد أن ذلك يعني، يا ديك، أن علي أن أتخلى عن عضويتي في المحكمة".

وافقه تشيني على أن الوضع كان كذلك.

قال سلبرمان: "دعني أفكر بالأمر وأفاتح ريكي به". فزوج سلبرمان، ريكي، التي كانت أيضاً محامية، كانت قد عملت مع زوج نائب الرئيس لين تشيني في منبر المرأة المستقل مجموعة نساء محافظات كن مؤيدات لتعيين كليرنس توماس رئيسة للمحكمة العليا.

كان سلبرمان مستمتعاً بعمله قاضياً، غير أنه أقر بأنه أحس بأنه كان يتعين عليه زمن الحرب أن يلبي نداء نائب الرئيس. صباح اليوم التالي، اتصل بتشيني وأبلغه موافقته على تولي المهمة. وبعد يوم واحد، حسب روايته، ذهب إلى البيت الأبيض لمقابلة مستشار البيت الأبيض آلبرتو غونزاليس وبعض المحامين من البيت الأبيض ووزارة العدل. فوجئ الجميع بأحد الأنباء السارة: ثمة قاضٍ كبير لم يكن ممنوعاً من الموافقة على الاضطلاع بمثل هذه المهمات الرئاسية.

علق سلبرمان: "بات الأمر أيسر لأنني كنت مستعداً للاستقالة".

بادر بوش إلى الاتصال بتوم فولي، رئيس مجلس النواب الديمقراطي السابق، الذي عاد الآن أحد محامي واشنطن. كان بحاجة إلى ديمقراطي يكون شريكاً في رئاسة اللجنة لتكون ممثلة للحزبين. وافق فولي على اقتسام الرئاسة.

مع حلول يوم 5 شباط/فبراير، كان سلبرمان في البيت الأبيض مجتمعاً مع كارد لصياغة التفاصيل.

قال كارد: "للتو تلقيت الاتصال الهاتفي الأغرب من توم فولي الذي عبر عن عجزه عن الخدمة". فأنباء مشاركته في اللجنة كانت قد تسربت إلى الصحافة، وتعرض فولي للضغط من جانب ديمقراطيي الكونغرس المطالبين بالإحجام عن المشاركة. وزعيمة أقلية لمجلس الديمقراطية الفرانسسكوية نانسي بيلوسي كانت قد أقنعت فولي بالتراجع، حسب كلام كارد، بحجة أن اللجنة كانت مصمَّمة من أجل توفير غطاء سياسي لإخفاق بوش، خلال نحو عام بعد غزو العراق، في العثور على أي أسلحة دمار شامل.

في رسالة موجهة إلى الرئيس بوش، كتبت بيلوسي واثنان من كبار أعضاء مجلس الشيوخ الديمقراطيين، زعيم الأقلية توم داشل والعضو جون دي روكفلر، الديمقراطي الأول في لجنة الاستخبارات بمجلس الشيوخ أن "لجنة يشكلها البيت الأبيض ويتحكم بها لن تتمتع بالاستقلالية والمصداقية اللازمتين للتحقيق في هذه القضايا. حتى بعض تصريحاتك أنت بالذات وتصريحات نائب الرئيس تشيني بحاجة إلى معاينة مستقلة".

تجح هؤلاء، وراء الكواليس، في إقناع فولي بعدم السماح بإقحام اسمه على المحاولة. وقد أفاد كارد بأن الرئيس أصيب بخيبة أمل. مر بوش وتشيني بمكتب كارد. سأل الرئيس: "ما رأيك يا لازي؟ هل ترغب في أن تكون الرئيس؟"

رد سلبرمان: "لا أظن أن ذلك تدبير حكيم. لقد جرى تعييني بوصفي جمهورياً. سيتم النظر إلي على أنني كذلك. أعتقد أن من المفروض وجود شريك رئاسي".

" نا أيضاً أعتقد ذلك" قال بوش.

راح بوش، تشيني، كارد وسلبرمان يخضون أدمغتهم بحثاً عن شريك رئاسة قادر على منح اللجنة قدراً من التوازن السياسي وتزويدهم، هم أنفسهم، بنوع من الغطاء السياسي.

ماذا عن تشاك روب؟ اقترح بوش. فتشارلز اس روب كان حاكماً ديمقراطياً سابقاً لولاية فيرجينيا وعضواً في مجلس الشيوخ عنها، وصهراً للندون جونسون. وسبق له أن كان نقيباً في المارينز في فيتنام، وبوصفه سناتوراً على امتداد اثني عشر عاماً من 1989 إلى 2001 كان قد اضطلع بعضوية كل من لجان الأمن القومي الرئيسة: العلاقات الخارجية، القوات المسلحة والاستخبارات.

كان روب يعد ديمقراطياً، معتدلاً، بل وحتى محافظاً. كان الناس في فيرجينيا يرونه جمهورياً تقريباً. لم يتردد في تأييد حرب الخليج الفارسي في 1991 ودأب على

انتقاد قرار الرئيس كلنتون القاضي بالعزوف عن استخدام القوات البرية في كوسوفو سنة 1999.

اتصل الرئيس بروب الذي وافق على الاضطلاع بالمهمة.

وبعد ذلك عكف بوش، تشيني، كارد وسلبرمان على استعراض عدد من قوائم الأسماء لاستكمال اللجنة. كان سلبرمان واثقاً من ضرورة وجود أقله ديمقراطي ليبرالي حقيقي واحد فاقترح القاضية باتريشيا والد، تلك التي عينها كارتر وسبق له أن عمل معها في محكمة الاستئناف الاتحادية. على الرغم من أنهما كانا نقيضين على الصعيد الإيديولوجي، فإن سلبرمان عبر عن احترام هائل لها قائلاً: "حماسة، ذكاء، شجاعة واستقامة".

رد عليه كارد "حسناً، إنها اختيارك أنت".

فيما بعد حين سمع كارل روف عن الديمقراطيين في اللجنة فوجئ وقال لبوش مازحاً وهو غير مصدق: "بات والد؟ ألا تتذكر سيادة الرئيس؟ قديماً، في عصر ما قبل الطوفان، كانت شيوعية".

قام بوش بمفاتحة رايس عن عدم رغبته في تحقيق برلماني شبيه بتحقيقات لجنتي تشيرتش وبايك بعد ووترغيت في 1975 - 1976 التي فضحت قيام وكالة الاستخبارات المركزية وجهاز المخابرات بالتجسس على مواطني الولايات المتحدة، بالتورط في الإتجار بالمخدرات، وبتدبير مؤامرات الاغتيال للإجهاز على قادة أجانب بمن فيهم الزعيم الكوبي فيدل كاسترو. كان الرئيس يرى تلك التحقيقات عمليات مطاردة سحرة ولم تتمخض إلا عن الإجهاز على معنويات وكالة الاستخبارات المركزية وتقليص صلاحيات رئيس الجمهورية.

أرادت القيادات الديمقراطية في مجلسي النواب والشيوخ جعل التحقيق حول أسلحة الدمار الشامل شبيهاً بتحقيقات لجنة 9/11 المشكلة بالقانون مع قيام كل من الرئيس والكونغرس بتسمية نصف الأعضاء. وسناتور ماساتشوستس جون اف كيري البادئ بالبروز مرشحاً رئاسياً ديمقراطياً دعا إلى إجراء تحقيق مستقل في الموضوع الاستخبارات ذات العلاقة بأسلحة الدمار الشامل.

قال: "يغوص الأمر في جوهر سبب ذهاب الأمة إلى الحرب. إذا كان هناك ذلك النوع من الإخفاق، ذلك النوع من الانفصال وعدم التطابق بين حقيقة ما تقوله وكالة

الاستخبارات المركزية للبيت الأبيض وبين ما يحصل، فإن علينا، عندئذ، أن نفصل ذلك التحقيق عن البيت الأبيض حتى يصل الشعب الأمريكي إلى معرفة الحقيقة".

لم يكن الرئيس مستعداً للتخلي عن التحكم بالتحقيق. وفي الساعة الواحدة والنصف من بعد ظهر يوم الجمعة الواقع في 6 شباط/فبراير اعتلى المنصة في غرفة المؤتمرات الصحفية بالبيت الأبيض ليعلن عن توقيعه أمراً تنفيذياً بتعيين تسعة أشخاص أعضاء في لجنة سلبرمان – روب. مع التأكيد على أن اللجنة ستكون متمتعة بصلاحيات واسعة ليس فقط لنظر في موضوع الاستخبارات حول أسلحة الدمار الشامل في العراق، بل وللنظر في مسألة الاستخبارات ذات العلاقة بأسلحة الدمار الشامل في العالم كله كما في قضايا قدرات الولايات المتحدة الاستخباراتية ومنظماتها.

ثم أضاف بوش: "سيقوم أعضاء اللجنة بإصدار تقريرهم مع حلول يوم 31 آذار/مارس، 2005." أي بعد الانتخابات الرئاسية بخمسة أشهر.

قال سلبرمان لاحقاً متذكراً ما حصل: "كان واضحاً ومفهوماً أننا لن نُطالب بتقويم استخدام الإدارة للاستخبارات. بصراحة، لو كانت تلك هي المهمة لما رغبت في الاضطلاع بها. كانت المسألة مفرطة في سياسيتها. كان الجميع واقفاً على ما كان الرئيس ونائب الرئيس قد قالاه عن الاستخبارات. يستطيعان سوق أحكامهما الخاصة عما إذا كان ذلك إنصافاً أو أي شيء آخر".

عدد قليل من الديمقراطيين عبّروا عن جرأة بشأن التقييد. فالنائب هنري واكسمان، وهو عضو مجلس مخضرم، منذ 29 عاماً، ديمقراطي من كاليفورنيا، قال إن اللجنة "مطالبة بتجاهل الفيل الموجود في وسط الغرفة، أي إغفال مسألة استخدام وسوء استخدام الاستخبارات من قبل كل من الرئيس بوش، نائب الرئيس تشيني ومسؤولين كبار آخرين في الإدارة". أما عضو مجلس الشيوخ هاري رايد، الديمقراطي الثاني، فأعلن أن اللجنة كانت قد صُممت "لحماية الرئيس".

عاد الأمير بندر إلى المكتب البيضوي يوم الجمعة الواقع في 20 شباط/فبراير 2004 للاجتماع مع بوش، رايس وكارد. كان السعوديون قد تلقوا رسالة من زوج صدام،

التي كانت في الأردن، طلبت فيها السماح لها ولبناتها بزيارة الحرمين الشريفين في مكة والمدينة. كان الطلب ستتم تلبيته شرط بقاء نبأ الزيارة مكتوماً.

أضاف بندر أن ولي العهد كان ملتزماً بإصلاحاته السياسية والاقتصادية كان عازماً على توسيع مشاركة جميع السعوديين. "غير أننا نطالب الأمريكيين بالتخفيف من الحملة المتواصلة على هذا الصعيد كي لا يُظن أننا لا نقوم بما نقوم به إلا بسبب الضغط الذي تمارسه الولايات المتحدة". قال بندر.

كرر بوش تقديره لرؤية ولي العهد وجهوده الرامية إلى تحقيق الإصلاح الديمقراطي. أضاف بوش "قد يكون نوع من زيادة سرعة هذه العملية مطلوباً." مؤيداً على ضرورة بقاء الإصلاحات نابعة من الداخل. ثم شكر بندر على ما كان السعوديون يقومون به فيما يخص النفط لإبقاء السعر معقولاً.

وحول موضوع جديد ومهم قال بوش إن لدى الولايات المتحدة برنامجاً بقيمة 3 مليارات دولار للباكستان. فرئيس الباكستان، الجنرال برفيز مشرف، في وضع حرج. وكاد يقع ضحية اغتيال مرتين، في 11 كانون الأول/ديسمبر، و25 كانون الأول/ديسمبر.

قال بوش: "إن باكستان بحاجة ماسة إلى 26 طائرة هليكوبتر قيمتها نحو 250 مليوناً من الدولارات. ليت الصديق ولي العهد يوجه بدفع قيمة هذه الهليكوبترات لان من شأن تمرير البرنامج عبر الكونغرس قد يتطلب وقتاً".

وهليكوبترات بل، طراز: EP NVG-Compatible 41، طائرات عمليات خاصة مثالية لتعقب الإرهابيين والقتلة – أسامة بن لادن وخصوم مشرف العنيفين بعبارة أخرى. إنها طائرات ذات سجل في مجال التعقب، وهي مستخدمة من قبل القوات المسلحة البريطانية والكندية.

قال بندر إنه كان سيتعين عليه أن ينقل الطلب إلى ولي العهد.

بعد أربعة أيام بادر البنتاغون إلى تزويد بندر ببيان مفصل عن أسطول الهليكوبترات. نجح البيان المكتوب في حفز بندر. "هذه الطائرات ستوفر خدمة دعم عملياتيين لجملة مصالح الولايات المتحدة وحليفاتها الاستراتيجية في المنطقة". سارع

ولي العهد إلى الموافقة على أن تدفع السعودية مبلغ 235 مليوناً من الدولارات ثمناً لـ 24 طائرة هليكوبتر بَلْ للجيش الباكستاني، بما فيه برنامج للتدريب والصيانة، إضافةً إلى معدات فنيين وقطع تبديل، وفقاً لسجلات سعودية.

مع حلول شباط/فبراير 2004 كان بريمر قد تراجع فيما يخص قضية جيش صدام القديم. قال لقيادي عراقي: "ليس لدى التحالف أي اعتراض مبدئي على عناصر من الجيش السابق. نحو 80 بالمئة من الجيش العراقي الجديد ووحدات الدفاع المدني عسكريون سابقون. جميع الضباط العاملين والاحتياط هم كذلك". إن الأخيرين هم الذين كانوا يثيرون مخاوف بريمر وسلوكلومبي. كانوا، حسب زعم الزاعمين، ذوي علاقات بعثية. أما الآن فإن كل قيادة الجيش الجديد كانت آتية من الجيش القديم.

في ذلك الشهر نفسه، اقترح الجنرال أبي زيد في أحد اجتماعات مجلس الأمن القومي الشروع في تطعيم الوحدات العسكرية العراقية بقوات أمريكية. كان من شأن القوات الأمريكية أن توفر القيادة، الاستخبارات والاتصالات.

ملتفتاً إلى رمسفلد قال الرئيس: "هذا عظيم، يا دون". ثم أضاف إن عليهم أن يقوموا بقدرٍ كبير من الإجراءات علناً لأن من شأنه أن يُظهر كما لو كانوا ينقلون عبء الحرب إلى العراق - الموضوع الذي كان شديد الحرص على تأكيده بالتحديد. "إنه لأمر بالغ الروعة" قال بوش ملتفتاً إلى دان بارتلت بعد رمسفلد، "أريد... يا بارتلت...".

غير أن رمسفلد قاطعه قائلاً: "ألفت نظركم يا سيادة الرئيس إلى أنني لم أوافق على الأمر بعد". كان شديد القلق إزاء معاينة الوحدات العراقية المؤهلة للحصول على قوات أمريكية. في حروب أخرى ثمة ضباط أمريكيون كانوا قد "قُطِّعوا إرباً" - قُتلوا من قبل مرؤوسيهم بالذات. فأي نوع من الضمان يمكن توفيره لحماية الجنود الأمريكيين من التعرض للتقطيع بأيدي متمردين أو أعداء آخرين في وحدات عراقية. "إنها توصية مرفوعة إني هنا، إذا وجدتها مناسبة فسأبادر إلى نقلها إليك يا سيادة الرئيس".

"حسناً" قال بوش "أفهم ما تقوله، ولكنني أريدك، حين توافق على التوصية، إذا ما وافقت عليها، أن تعلمني كي نتمكن من تحقيق الفائدة المناسبة منها".

كان فرانك ملر من جهاز العاملين في مجلس الأمن القومي حاضراً الاجتماع، وتعقب هادلي بعد ذلك وفاتحه: "عاكفون نحن، يا ستيف، على إدخال عناصر في وحدات عراقية". كان على اتصال بضباط في العراق وعلم بأن الأمر كان حاصلاً بالفعل وإن لم يكن برنامجاً رسمياً على مستوى البنتاغون.

آملاً في ألا يكون الأمر صحيحاً قال هادلي: "لا".

"ثق بكلامي وصدقني يا ستيف. أنا فرانك. عاكف أنا على التحدث مع أناس يعرفون ما يجري على أرض الواقع. إننا منخرطون في هذا".

"مفهوم" قال هادلي "شكراً".

لاحقاً، تحدث ملر مع أحد جنرالات النجوم الأربعة في البنتاغون. سأله الجنرال: "ما الذي يمنع رمسفلد من الموافقة على هذا؟ هل يضع الرئيس إبهامه عليه ويقول: "حذار الإقدام على هذا!"؟"

رد ملر: "لا، العكس هو الصحيح. إن الرئيس يريد الانخراط. إن الرئيس يريد الإفادة من هذا".

أخيراً وافق رمسفلد على فكرة التطعيم بهذا القدر أو ذاك، بهدوء. وفيما بعد ما لبث الأمر أن أصبح الأسلوب الأمريكي الرئيس لرفع مستوى القدرة القتالية للوحدات العراقية. وببطء تسربت الأنباء إلى بعض مواد الصحف ولكنها لم تحدث الضجة الكبرى أو الصدمة العظمى التي كان بوش قد حلم بها على صعيد العلاقات العامة.

كانت رايس متعطّشة للمعلومات والاستخبارات. أرادت أن تعرف ما الذي كان يجري فعلاً هناك. ظلت تقول لفرانك مر: "زوّدني بالمزيد. هات مزيداً من المعلومات!"

في آذار/مارس 2004، أوفدت ملر إلى العراق لاستكشاف الوضع الحقيقي للأمور. ذهب إلى هناك بوصفه ممثلاً لها، غير أنه حاول أن يقلّل من شأن انتمائه إلى مؤسسة مجلس الأمن القومي. لم يكن الأمر واعداً برأيه. أراد أن يتجنب تلميع الصور "المدوزنة" للتأثير في الزوار الآتين من واشنطن وربما لتضليلهم. لم يطلب أي لقاء مع بريمر. لم ير أن من شأنه أن يكون مفيداً، إلا أنه لم يرد أيضاً أن يخاطر باحتمال التعرض لرفض الطلب. كان ذلك هو المستوى المتصور من استقلال بريمر عن مراقبة مجلس الأمن القومي وإشرافه.

صُعق ملر إزاء تحول سلطة التحالف المؤقتة إلى مدينة نُسّاك معزولة، متخفية في المنطقة الخضراء. اطلع أحد مسؤولي هذه السلطة على خطته المتمثلة بالطواف جواً على مختلف أرجاء البلاد ليزور برفقة قادة الفرق العسكرية الأمريكية المسؤولين عن قيادة عشرات آلاف الجنود الأمريكيين.

"واو!" قال مسؤول سلطة التحالف "ليتنا كنا نستطيع أن نفعل ذلك. ليتنا كنا قادرين على رؤية البلاد!"

كلام ذو مغزى برأي ملر. ثمة نوع من الكسل والاستنقاع، أشبه بحال مجموعة لاعبي كرة سلة دائبين على تمرير الكرة من هذا إلى ذاك، ومنه إلى ذلك، عازفين عن الإقدام على أي رمية هدف. إنه شهر آذار/مارس، وموعد تسليم الحكم محدد في حزيران/يونيو، قال بينه وبين نفسه. لابد من الإقلاع عن التمريرات والمبادرة إلى إطلاق رمية هدف.

ما لبث ملر والشخصان اللذان اصطحبهما - عقيد الجيش المتقاعد جيف جونز من مجلس الأمن القومي وعقيد جيش عامل في الخدمة آخر من رئاسة الأركان المشتركة - أن وصلوا إلى مقر قيادة الفرقة المدرعة الأولى ببغداد حيث كان نائب القائد، وهو جنرال بنجمة واحدة يدعى مارك هرتلنغ، صديقاً قديماً لملر منذ أيام عملهما معاً في البنتاغون. التحقت المجموعة بدورية همفي عبر منطقة إلى الجنوب مباشرة من مدينة الصدر، ذلك الحي الشعبي الشيعي المؤلف من الأكواخ والبيوت العشوائية سيء السمعة. كتلة فقر صارخة برأي ملر: لا مياه صالحة للشرب، لا تمديدات صحية سالكة. إن الناس يعيشون في أكواخ كئيبة ويلقون بالنفايات والفضلات البشرية في باحاتهم الأمامية.

بدا الجنود الأمريكيون في مدينة الصدر والأمكنة الأخرى كما لو كانوا مهندسين لا مشاة، مشغولين بإصلاح شبكات تمديدات المياه وترميم أو تحسين بعض الطرق. إلا أن التمويل الوحيد لهذه المشروعات الآنية كان يأتي من صناديق الجيش الطارئة المعروفة باسم برنامج القائد للردود الطارئة (CERP). سجل ملر ملاحظة حول الحاجة إلى توسيع وتفعيل مثل هذه الصناديق والبرامج - عبر وضع مبالغ مالية تحت تصرف قادة الكتائب والألوية - نظراً لأنها كانت المبالغ الوحيدة ذات التأثير الملموس في السكان.

كان من المفاجئ والصاعق برأي ملر أن العراقيين الذين رآهم بدوا ودودين عموماً، أو، قله، غير عدوانيين. ثمة أطفال كانوا يخرجون راكضين وهم يبتسمون ويطلقون

عبارات الترحيب ورسم إشارات الاستحسان والنصر بأصابعهم. لاحظ ملر أن إشارات الاستحسان كانت تتم بالإبهام لا بالإصبع المتوسط كما هي العادة في الولايات المتحدة.

ذهب ملر إلى تكريت، حيث كانت فرقة المشاة الرابعة تنفذ عملياتها، وحيث كان صدام حسين قد اعتُقل قبل ثلاثة أشهر. كبار ضباط هذه الفرقة عبروا عن الاعتقاد بأنهم كانوا قد أجهزوا، أو ألقوا القبض، على عدد كبير من كبار قيادات حركة التمرد. ومجرد كون العراقيين مستعدين لكلام مع الأمريكيين شكل مؤشراً واعداً. وثمة معلومات استخباراتية أفضل كان يتم لحصول عليها من عراقيين كانوا يأتون طواعية لتقديم معلومات جيدة. لم يبدُ أحدٌ راغباً في عودة صدام. كانت العراق عاكفه على تشكيل وحدات الدفاع المدني العراقية عبر الإنفاق من صناديق الطوارئ – كما لاحظ ملر مرة أخرى – لشراء الأسلحة والملابس الرسمية الموحدة.

في جميع الأمكنة، وجد ملر أن الوحدات العراقية كانت تعاني من نقص شديد، باعث على اليأس، في السيارات ومعدات الاتصالات. وجهاز الدفاع المدني - وهو الجهاز الذي تتمثل مهمته الأولى بحراسة البنى التحتية الثمينة مثل البنوك والمباني الأخرى، تمكيناً للقوات الأفضل تدريباً من التفرغ للواجبات الأكثر صعوبة – لم يكن إلا من صنع الفرق العسكرية الأمريكية المتفردة التي بادرت إلى استحداثه. إحدى الفرق اعتمدت برنامجاً للتدريب مدته أسبوع واحد، آخر مدته أسبوعان، ثالث مدته ثلاثة أسابيع. بدا الأمر مثيراً للسخرية. وقد علم ملر أن جنرالاً بنجمتين قام في وقتٍ سابق من ذلك العام بإرسال تقرير إلى الدفاع يستجدي فيه حرفياً اعتماد معايير قومية موحدة بالنسبة إلى الجهاز إلا أن ذلك لم يحصل.

دوّن ملر في دفتره تعليق قائد إحدى الفرق: "ما الخلل في بغداد؟" سأل القائد مشيراً إلى سلطة التحالف المؤقتة بقيادة بريمر. "لماذا لا يعطوننا المال اللازم للقيام بهذه المهمة، ولتنفيذ مشروعات إعادة البناء الضرورية؟" فبناء الوحدات العراقية، الأمنية منها والعسكرية على حدٍّ سواء، وإعادة بناء جملة منشآت بنية البلاد التحتية، لم يكونا إلا شرطين مسبقين من شروط اعتماد أي استراتيجية خروج بالنسبة إلى الولايات المتحدة. غير أن المال والتنسيق المتوفرين لإنجاز المهمة الضرورية والصحيحة كانا أقل مما هو مطلوب.

بدا العراق ساحة حرب. كانت الهجمات قد تصاعدت ثانية إلى نحو 1000 في الشهر. ما من جندي رآه ملر إلا وكان يحمل سلاحاً. قاعة طعام كان ملر يتناول فيها

وجناته تعرضت لهجوم بالمورتار. ولدى طيرانه بطائرات الهليكوبتر، كان يرى رماة الأبو ب مسددين بنادقهم نحو أهداف محتملة على الأرض. كان ملر يرتدي سترة واقية، ولم يتحرك هو ومساعداه إلا تحت المراقبة اليقظة لملازم أول شاب جاد في سلاح المدفعية من كنساس كان مكلفاً بالمرافقة. ولدى النزول إلى الأرض لم تكن الحركة تتم إلا في قوافل من سيارات الهمفي وعربات السباق السريعة وقد جلس رامي مدفع رشاش فوق كل سيارة همفي وضابط مرافقة مع سلاحه الام - 16 (M-16) المسدد عبر النافذة. صحيح أن ذلك كان حسناً في جانب منه إذ جعل ملر يحس بقدرٍ جيد من الأمن - غير أنه ما لبث أن فكر بينه وبين نفسه: "لسنا قادرين على كسب أي قلوب وعقول بهذه الطريقة".

ومن تكريت، واصل ملر الطيران إلى كركوك حيث حل ضيفاً على لواء من فرقة المشاة الخمسة والعشرين المتمركزة في هاواي. غادر من محطة شرطة عراقية حيث كان الجيش الأمريكي يحاول تدريب بعض العراقيين ليصبحوا عناصر شرطة حقيقيين. مؤثر إلى حد بعيد، برأي ملر، إلا أنه سمع أيضاً مزيداً من الكلام عن الآلاف من المعلمين العراقيين الذين كانوا قد طُردوا من عملهم بموجب أمر اجتثاث البعث: كان الموقف محيراً حقاً لأن المعلمين والمدرسين في عراق صدام كانوا ملزمين بالانتساب إلى حزب البعث.

ثم توجه ملر إلى البصرة جنوباً، إلى تلك المدينة الواقعة على الطرف الجنوبي - الشرقي للعراق، التي كانت تحت سيطرة المملكة المتحدة. قدم له جنرال بنجمتين ومقدم بريطانيان تقريراً رآه مشرقاً عن النجاح الكبير المتحقق في تعليم الشرطة المحلية العراقية فن القيام بأعمال الدورية. لم يكن عناصر الشرطة المحليون يستطيعون قراءة الخرائط الموضحة باللغة الإنجليزية التي كانوا يحصلون عليها من البريطانيين، كما قالوا، فقاموا بحفظ مسارات الدورية عن ظهر قلب: اخرجْ من المركز وانعطف يميناً، امش مسافة عشر بلوكات إلى السوق، انعطف يميناً، امش مسافة 15 بلوكاً إلى المسجد، انعطف يميناً، وما إلى ذلك.

رافق الضابطان البريطانيان ملر إلى مخفر للشرطة العراقية للحصول على تقرير آخر من نقيب بريطاني.

بادر ملر لواءً عراقياً كهلاً مائلاً إلى البدانة قائلاً: "حدثني، ما الذي يفعله مرؤوسوك لحظة وصولهم إلى العمل صباحاً".

رد العراقي: "حسناً، يصلون إلى المخفر، يحتسون القهوة، ويجلسون هنا إلى أن آمرهم بالانطلاق إلى اعتقال أحدهم".

رمى ملر الضابطين البريطانيين اللذين كانا معه، جنرال النجمتين والمقدم، بنظرة. قال: "اسمعا يا أنتما، هذا بالذات هو ما كان صدام يفعله. وأنتما تحدثانني عن كل هذا الهراء حول الأساليب التي اتبعتماها في إصلاح جهاز الشرطة. أنتم لم تفعلوا أي شيء ينطوي على ذرة قيمة واحدة".

واصل ملر جولته للقاء القائد البولوني للفرقة متعددة الجنسيات المؤلفة من جنود منتمين إلى 23 دولة. كان هذا هو الجزء الأشد اضطراباً من جسد التحالف – إن بقيت ورقة تين مهمة لتوحي بأن الحرب كانت محاولة دولية ذات قاعدة عريضة.

قال قائد الفرقة البولوني لملر: "عندي 23 وحدة قومية منفصلة. وهي تتبع 23 قاعدة اشتباك. أرفع سماعة الهاتف، أقول للعقيد المسؤول عن اللواء الإسباني ما ينبغي عمله. هو بدوره يرفع سماعة الهاتف، يتصل بمدريد، ويقول: "قيل لي أن أفعل هذا - هل أنتم موافقون؟"".

أدرك ملر أن ذلك كان يعني أن الفرقة متعددة الجنسية كانت ضئيلة أو عديمة القابلية القتالية.

حاول ملر، في المنطقة الخضراء، لدى مغادرته العراق تحديد مآزق سلطة التحالف المؤقتة. تمثلت إحدى المشكلات الأساسية بأن بريمر واللفتنانت جنرال ريكاردو سانشيز، القائد الميداني الذي كان قد حل محل الجنرال ماك كيرنان، لم يكونا صريحين فعلاً؛ بقيا ملتزمين الصمت. فبريمر كان يحاول معالجة مشكلة السياسة الداخلية العراقية من خلال أعمال إعادة البناء، في حين كان يُفترض في سانشيز أن يتولى التعامل مع مسألتي الأمن والعنف. بقي بريمر مصراً على مواصلة ادعاء أن القضية المركزية تمثلت بفقدان الأمن – أي الخلل في مهمة سانشيز.

طلب سانشيز مقابلة ملر على مائدة عشاء.

تحدث ملر مع سانشيز عن مشكلة تواصل كبيرة. أفاد بأنه أمضى أسبوعاً مع قادة الفرق واكتشف أنهم لا يتوفرون على الفهم نفسه لصلاحياتهم. أحدهم يعتقد أنه يستطيع طرد عناصر الشرطة السيئين. آخر يظن أنه متمتع بصلاحية إدارة عمليته

البسيكولوجية الخاصة. ثالث يؤمن بأن عليه أن يسوي جميع الأمور مع بغداد. ومع انبثاق كل هذه الفرق الجديدة، "قد يكون من المجدي" برأي ملر "أن تتم المبادرة إلى تعميم الأوامر النافذة من جديد لمصلحة الشباب الجدد".

أفاد سانشيز بأنهم كانوا يعانون من صعوبة الحصول على الأموال التي كان الكونغرس قد خصصها لمشاريع إعادة الإعمار في العراق - وهي مبالغ تصل إلى مليارات الدولارات. التفت إلى العقيد جيف جونز المرافق لملر وقال إن كل الكلام الصادر عن واشنطن كان يبقى كلاماً مجرداً دون تنفيذ فعلي أكثر الأحيان ثم أضاف: "هيا برهن لي أن العراق هو الأولوية الأولى، لأنني لا أراه كذلك من هنا".

قدّر ملر أنه استطاع في أسبوع واحد أن يرى من البلد أكثر وأن يُكوّن فكرة عنه أفضل من معظم العاملين في أجهزة سلطة التحالف المؤقتة الموجودين هناك منذ أشهر.

1. نائب الرئيس ديك تشيني، قاضي محكمة الاستئناف الاتحادية لورنس سلبرمن، الرئيس بوش، جويس رمسفلد ودونالد إتش رمسفلد في 1/26/ 2001. يقوم رمسفلد بأداء القسم وزيراً للدفاع، وهو منصب سبق له أن تولاه في سبعينيات القرن العشرين خلال إدارة فورد. بادر تشيني صديقه وأستاذه القديم رمسفلد قائلاً: "حذار الخطأ هذه المرة!".

2. نائب الرئيس تشيني، السفير السعودي الأمير بندر، مستشارة الأمن القومي كوندوليزا رايس والرئيس بوش في لقاء على شرفة ترومان بالبيت الأبيض بعد هجمات 11/ 9/ 2001 الإرهابية ببضعة أيام. كشف بوش عن خططه الخاصة بالتعامل مع مشبوهي الإرهاب المحتملين قائلاً لبندر: "إذا ألقينا القبض على أحدهم ولم نستطع إقناعه بالتعاون، فسوف نحيله عليكم."

4 - (يميناً) رئيس العمليات البحرية الأدميرال فيرنون كلارك الذي قال لرمسفلد في لقاء خاص: "إذا اخترتني رئيساً (لهيئة الأركان) فسوف أضطلع بكامل مسؤوليات المستشار العسكري لرئيس الجمهورية."

3 - (يساراً) ستيف هيريتس، مساعد رمسفلد الخاص السابق وصديقه القديم، أُعيد مستدعاً خلال وزارة رمسفلد الثانية للدفاع. في 10/4/ 2003 كتب في مذكرة موجهة إلى رمسفلد يقول: "من الأساسي ألا تنشب أي حرب أهلية في العراق، في الأشهر التي تلي وقف إطلاق النار. فالحروب الأهلية تذكّر، صواباً أو خطأ، بفيتنام. من شأن خطة الرئيس الاستراتيجية أن تخنق في حضن مثل هذه المقارنة."

5 - نائب وزير الدفاع بول وولفوفيتز (يميناً) والجنرال بيتر بيس، نائب رئيس هيئة الأركان ورئيسها لاحقاً. مع تصاعد العنف في خريف 2003، زاد شعور وولفوفيتز، وهو أحد أوائل مؤيدي الحرب على العراق، بالتهميش من قبل رمسفلد واستنتج أن الأخير كان يعرقل الجهود المبكرة الرامية إلى تدريب قوات أمن عراقية. أما بيس، وهو من قدماء محاربي فيتنام، فكان يمقت إحصاء جثث الأعداء ونصح بعدم إيرادها، غير أن الرئيس بقي دائم الرغبة في الاطلاع على الأعداد، وظل الجيش الأمريكي دائباً على تكرارها علناً.

6 . ال بول "جيري" بريمر الثالث (في الوسط) حل محل اللفتنانت جنرال المتقاعد جي غارنر (إلى اليمين) رئيساً لعمليات ما بعد الحرب في العراق بعد أسابيع قليلة من الاحتلال. وفيما كان بريمر يرتدي طقماً رسمياً مع حذاء تمبرلاند، كان بعض أركانه يسخرون من ملابس غارنر غير الرسمية. قام غارنر بإبلاغ رمسفلد بأن بريمر ارتكب "ثلاثة أخطاء مأساوية" في غضون أيام بعد وصوله إذ أبقى مئات الآلاف من العراقيين المسلحين دونما تنظيم، وعاطلين عن العمل. غير أن رمسفلد لم يبادر قط إلى إيصال الأمر إلى الرئيس.

7 ـ رئيس هيئة الأركان المشتركة الجنرال ريتشارد بي ميرز، رمسفلد، بوش وبريمر (من اليسار إلى اليمين). كتب الأخير عن سلطته في العراق يقول: "لم أكن تابعاً لأي من رمسفلد أو باول. كنت تابعاً للرئيس."

8 ـ الدكتور ديفد كي الذي تولى رئاسة فريق مسح العراق الذي باشر مهمة البحث عن أسلحة الدمار الشامل في صيف 2003. وبعد التوصل إلى استنتاج عدم احتمال العثور على مثل هذه الأسلحة اجتمع كي مع بوش الذي سأل عن السبب الكامن وراء وقوع وكالة الاستخبارات المركزية في مثل هذا الخطأ. رد عليه كي ملمحاً إلى مدير الوكالة جورج تنت: "لعل إحدى مشكلات أي مدير هي أنه يفقد توازنه إذا انغمس في العملية السياسية. فجورج، مثلاً، يأتي إلى هنا يومياً لتقديم التقرير الموجز. ولا بد لذلك من أن يضفي تأثير العملية السياسية على الوكالة... ثمة ثمن. أرجو عدم مكاشفة جورج بذلك."

9 ـ مساعد وزير الدفاع لشؤون التخطيط دوغ فايث الذي كان – وهو أحد أكثر الشخصيات التي أبرزتها الحرب العراقية إشكالية – مسؤولاً عن أجزاء رئيسة من عملية التخطيط لما بعد الحرب. وفي تقويم مكتوب أفاد مستشار رمسفلد ستيف هيريتس في وقت مبكر بأن عمل فايث "بات يُعد إخفاقاً جدياً على نطاق واسع." إلا أن كلاً من رمسفلد، وولفوفيتز، الجنرال بيس وستيف هادلي، نائب مستشار الأمن القومي في الفترة الرئاسية الأولى، دأبوا على الدفاع عن أداء فايث بقوة.

10 ـ فرانك ملر، المدير الأول للدفاع في جهاز مجلس الأمن القومي الذي سبق له أن شغل مناصب رفيعة في البنتاغون مع سبعة من وزراء الدفاع. كثيراً ما كانت رايس تقول: "تدبر الأمرا" لملر الذي كان يكافح لدفع رمسفلد أو البنتاغون فيما يخص قضايا رئيسة كان من شأنها أن تساعد القوات الأمريكية في العراق.

1 ـ الميجر جنرال سبايدر ماركس (العنكبوت)، المسؤول عن استخبارات القوات البرية الأمريكية الغازية، كان يؤمن بتوفر العراق على أسلحة دمار شامل، غير أنه صُدم حين اكتشف أن أياً من مواقع تلك الأسلحة المشبوهة الـ946 لم يقدم أي دليل حقيقي. أدرك أنه لم يكن قادراً على أن يقول بثقة إن هناك أسلحة دمار شامل في أي من المواقع الواردة في القائمة.

12 ـ الجنرال جون أبي زيد، قائد القيادة المركزية المسؤولة عن الشرق الأوسط، مع مساعد رمسفلد الخاص والناطق باسمه لاري ديريتا. في لقاء خاص عام 2006 مع عضو الكونغرس البنسلفاني جاك مورتا، الذي كان قد دعا إلى سحب القوات الأمريكية من العراق، رفع أبي زيد يده مبعداً إبهامه عن سبابته مسافة بوصة واحدة قائلاً: "إنها المسافة التي تفصلنا."

13 ـ جون نيغروبونتي، السفير الأمريكي الأول للعراق بعد الغزو، يتجول في سفارته مع القائم بالأعمال جيم جفري. قام الأخير بإطلاع السفير على خارطة لبغداد عليها مواقع ما يقرب من مئة هجوم تخريبي خلال أسبوع واحد. أكد جفري أن الأمن كان هو الأمر الرئيس مضيفاً: "ونحن لسنا متوفرين عليه." لاحقاً ما لبث نيغروبونتي أن أصبح المدير الأول للاستخبارات القومية ثم توصل مع حلول شهر حزيران/ يونيو 2006، إلى استنتاج يقول: إن سياسة الولايات المتحدة العراقية متعثرة.

14 ـ وزير الخارجية كولن باول، تشيني، رمسفلد والجنرالان ميرز وبيس (من اليسار إلى اليمين). غداة فضيحة سوء معاملة سجناء أبو غريب قدم رمسفلد استقالته ولكن بوش رفض قبولها. بادر الرئيس، بدلاً من ذلك، إلى حشد عدد كبير من أعضاء فريق الأمن القومي لديه لاصطحابهم في زيارة جماعية نادرة إلى البنتاغون تعبيراً عن التضامن مع وزيره على الملأ.

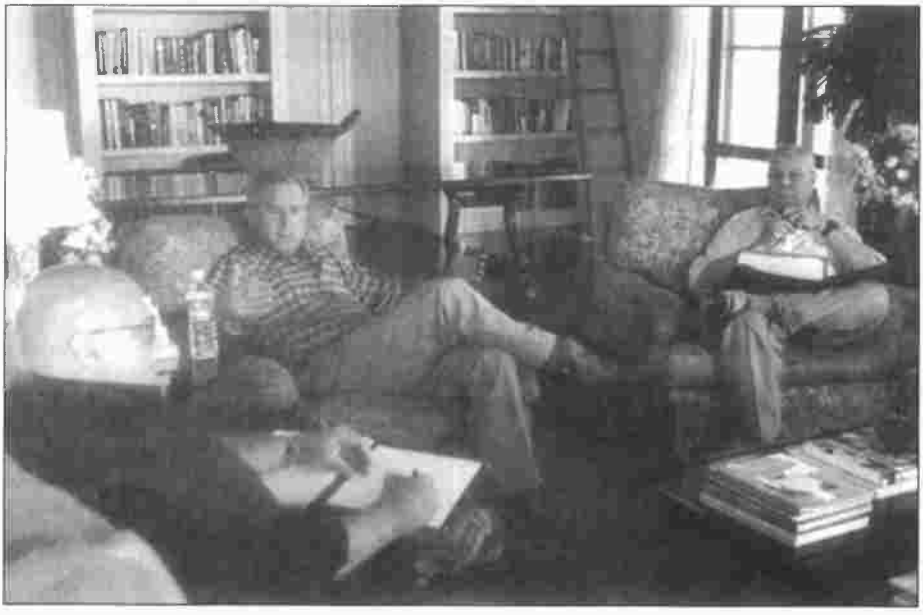

15 ـ نائب وزير الخارجية ريتشارد آرميتاج، بوش ووزير الخارجية باول (من اليسار إلى اليمين) في اجتماع بمزرعة بوش التكساسية في 2003. بعد استقالته، هو وباول، في العام التالي، سئل آرميتاج عن مدى استعداده لقبول أي منصب جديد في فترة بوش الثانية، فأجاب: "ليتني أعرف كيف أستطيع أن أعمل في إدارة تتخلى عن الوزير باول وتحتفظ بالسيد رمسفلد."

16 ـ مستشارو الرئيس كارل روف، كارن هيوز، بوب بلاكول، أحد نواب مستشار الأمن القومي، ورئيس جهاز العاملين آندي كارد (من اليسار إلى اليمين) يسافرون مع الرئيس في الحملة الرئاسية عام 2004. وبلاكول، الذي كان قد أمضى عدداً من الأشهر في العراق مطلعاً على شؤون الحرب وشجونها مثل الآخرين في البيت الأبيض، درج على السفر بانتظام مع بوش في الأشهر الأخيرة من الحملة الرئاسية، فوجئ إذ رأى أن أي نقاش في موضوع العراق كان من منظار الحملة، من وجهة نظر ما كان يمكن للسناتور جون كيري أن يقوله، أو من زاوية التأثير المحتمل للأحداث الجارية في العراق في عملية إعادة انتخاب الرئيس. لم يسأل أبداً بوش بلاكول عن سير الأمور في العراق هناك، أو عما ينبغي فعله من خلال رؤيته ومعايشته للوضع هناك.

17 ـ (فوق) جورج تنت، الجنرال المتقاعد تومي فرانكس وجيري بريمر في حفل تسلمهم وسام الحرية يوم 2004/12/14. تعرض الجميع للانتقاد على أدوارهم في الحرب غير أن بوش وقف إلى جانبهم واختار كلاً منهم لتكريمه بأرفع الأوسمة المدنية.

18 ـ القاضي سلبرمن (إلى اليمين)، السناتور السابق تشاك روب، أحد رئيسي لجنة بوش للتحقيق في استخبارات أسلحة الدمار الشامل. قال سلبرمن متذكراً: "كان واضحاً ومفهوماً أننا لم نكن لنطالب بتقويم استخدام الإدارة للمعلومات الاستخباراتية." ومن الشخصيات التي أخفقت اللجنة في مقابلتها كل من الجنرالات أبي زيد، ماكيرنان وماركس.

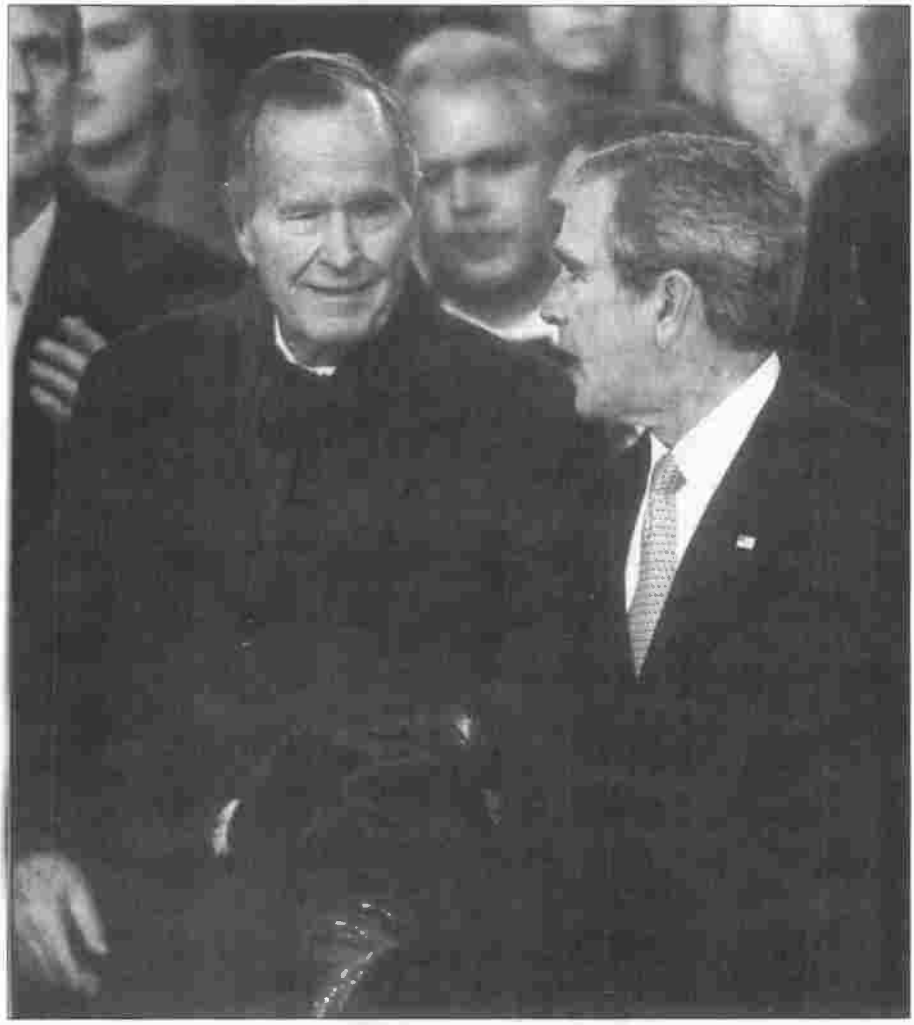

19. الرئيس الأسبق جورج إتش دبليو بوش في حفل تنصيب ابنه الثاني يوم 2005/1/20. في خطاب له عام 1999 كشف الرئيس بوش الأب عن قراره القاضي بعدم توسيع حرب الخليج الأولى سعياً إلى إطاحة صدام حسين قائلاً: "سنكون قوة احتلال ـ أمريكا في أرض عربية ـ دون حلفاء في صفنا. من شأن ذلك أن يكون كارثياً." غير مرة علّق في جلسات خاصة مع الأمير بندر وأصدقاء آخرين على السياسات المتبعة من قبل ابنه. سأله بندر في إحدى المرات: "لماذا لا تنبهه إلى خطورة الأمر؟" فرد الرئيس الأسبق: "كان لي دوري. إنه دوره."

20. رايس ورمسفلد يردان على أسئلة الصحافة في رحلتهما البغدادية في نيسان/ أبريل 2006. اقترح رمسفلد على رئيس الوزراء العراقي المنتخب نوري المالكي مناقشة موضوع القوات الأمريكية. لم يستخدم عبارة "تقليص" أو "سحب" ولكن الجميع كانوا يعرفون ما عناه. نظر المالكي إلى وزير الدفاع الأمريكي كما لو كان مجنوناً وقال: "إن الوقت مبكر جداً للحديث عن ذلك."

21. فيليب زليكوف، المدير التنفيذي السابق للجنة 9/11، الذي أصبح مستشاراً لدى وزارة الخارجية وأحد أقرب مساعدي رايس. في أيلول/ سبتمبر قامت رايس بإيفاد زليكوف إلى العراق. قال في تقريره: "ليست فرص النجاح في حدودها القصوى أكثر من 70 بالمئة. وذلك يعني أن احتمالات خطر الإخفاق تبقى 30 بالمئة وهي نسبة ذات شأن فيما يخص إخفاقاً كرئياً. حتى في التقويم المتفائل يمكننا الرهان فقط على احتمال أن تكون جهودنا كافية. ليس ثمة أي احتياط، فقط ما هو كاف."

22 . بوش مع رئيس جهاز العاملين المنتهية ولايته في نيسان/ أبريل 2006 . كان كارد قد قال للرئيس بعد انتخابات 2004 مباشرة: "لعل الأسلوب الأفضل للدلالة على جديتك في إحداث تغييرات هو تغيير رئيس جهاز العاملين لديك." وخاض معركة غير ناجحة دامت 18 شهراً من أجل إقناع بوش بإبدال رمسفلد أيضاً. وقام بلفت نظر خلفه جوشوا بولتن إلى أن مهمته ستبقى متركزة على "العراق العراق، العراق."

23 ـ تشيني، بوش ورمسفلد في آب/ أغسطس 2006. رأى رمسفلد أنه من "السخف" القول بأن تشيني مسيطر على بوش. وقد قال: "إنه لا يتخذ مواقف قوية حين يكون الرئيس في الغرفة كي لا يجد نفسه، على ما يبدو، متعارضاً مع الرئيس. إنه لا يحصر الرئيس في أي زاوية ولا يبادر إلى إلغاء خياراته."

24 ـ وزير الخارجية الأسبق الدكتور هنري كيسنجر. في 2005 قال تشيني: "من الخارجيين الذين أتحدث معهم في هذا المنصب، ربما يأتي هنري كيسنجر في المرتبة الأولى." مضيفاً أن بوش "شديد الإعجاب" بكيسنجر. درج بوش على لقاء كيسنجر على نحو خاص مرة كل شهرين، جاعلاً الوزير الأسبق أكثر مستشاري السياسة الخارجية الخارجيين تردداً على رئيس الجمهورية.

25 ـ السناتور تشاك هاغل، جمهوري من نبراسكا، أصبح ناقداً عالي الصوت لأسلوب التعامل مع عراق ما بعد الحرب. وفي حزيران/ يونيو 2005 همس في أذن الرئيس بوش قائلاً: "أعتقد أنك تتعرض لتضليل فعلي هنا في البيت الأبيض فيما يخص العراق."

26 ـ السناتور كارل ليفن الميتشيغاني، وهو الديمقراطي البارز في لجنة القوات المسلحة بمجلس الشيوخ: كان يعتقد بأن وزير الخارجية في 2003 كولن باول كان قادراً على إقناع بوش بوقف حرب العراق. وقد قال ليفن: "لا أظن أنه كان واثقاً من القدرة التي كان يتمتع بها، وهذا نوع من التخلي عن الواجب. هل تستطيعون أن تتصوروا أن نفوذ ذلك الشخص الواحد كان قادراً على تغيير المسار؟ كان باول متمتعاً بمثل هذا النفوذ."

27 . (فوق) كوندوليزا رايس والرئيس بوش. بانتظام كانت رايس تقوم بزيارات غير معلنة للمشافي العسكرية الراعية للجرحى في العراق. قالت: "لا بد لي من أن أكون قادرة على النظر إلى أولئك الشباب وأطرح على نفسي بصراحة سؤال عما إذا كنت أعتقد أن معاناتهم كانت جديرة. فهؤلاء ليسوا دمى أقحمهم في ساحات القتال؛ ليسوا مجرد دمى صغيرة بملابس عسكرية. إن هؤلاء مخلوقات بشرية حقيقية، نابضة بالحياة."

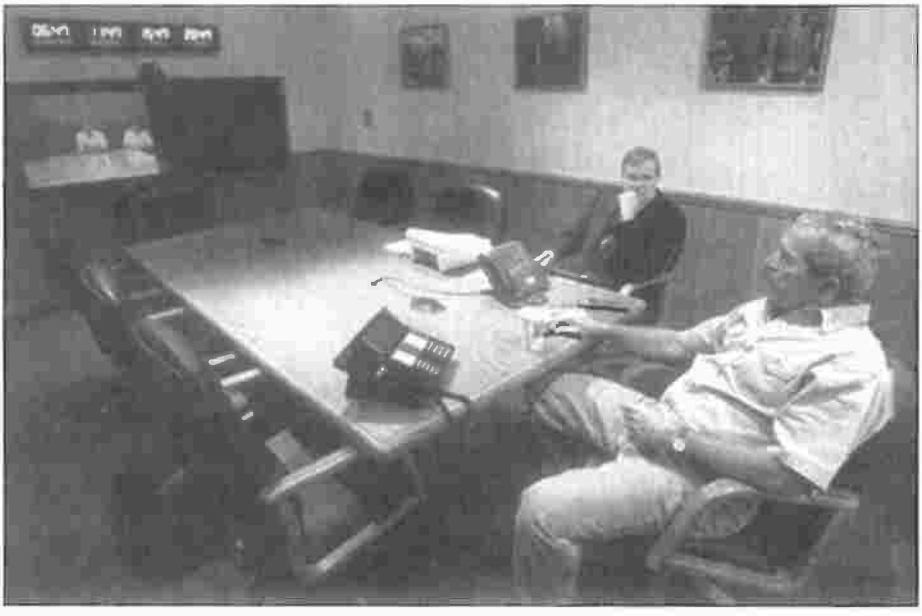

28 . (تحت) ستيف هادلي مع الرئيس بوش في مزرعة الرئيس التكساسية بكروفورد. لدى توليه منصب مستشار الأمن القومي، قال هادلي عن الفترة الرئاسية الأولى، حين كان نائباً لرايس: "لا نستحق سوى درجة «بي ناقص» في مادة رسم الخطط و «دي ناقص» في مادة تنفيذ هذه الخطط."

29 ـ في 2003/4/24، بعد الاجتياح بشهر واحد، تحدث الرئيس بوش في مصنع دبابات الجيش في ليما الأوهايوية، وامتدح جهود ما بعد الحرب التي بذلها اللفتنانت جنرال المتقاعد حي غارنر قائلاً: "لقد تابعنا العمل مع فريق من الرجال برئاسة هذا الرجل غارنر الذي لا يرمي إلا إلى تحقيق هدف طاغ واحد متمثل بتوفير دولة حرة بين أيدي شعب حر."

# 27

قدم ملر تقريره إلى رايس وهادلي. قال وهو يقرأ من دفتر ملاحظاته: "ثمة الكثير من الضرورات الملحة والمستعجلة خارج المنطقة الخضراء، غير أنني لم ألمس أي إحساس بالاستعجال داخل هذه المنطقة. لمست نوعاً من البطء، نوعاً من العجز عن الاستجابة، نوعاً من انعدام الفعالية والكفاءة. إن بريمر لم يكن يفوض أحداً، ولم يكن هو متوفراً على الوقت اللازم للقيام بكل شيء". علق أحد الجنرالات ملخصاً الوضع إذ قال، حسب رواية ملر: "البيروقراطية قاتلة".

أورد ملر كلام أحد القادة الذين تحدثوا عن برامج القادة الطارئة للردود السريعة، برامج الكيرب CERP. قال الجنرال "إذا لم أنفذ المشروع من خلال هذا البرنامج فلن يتم تنفيذه" مضيفاً أن من الحيوي الحفاظ على برنامج الكيرب بعد نقل السيادة.

مع أن بريمر حاول التحكم بالأمور، فيما يخص عدداً كبيراً جداً من القضايا، كما قال ملر، فإن جهاز العاملين في السلطة المؤقتة للتحالف ظل دائباً على تعطيل المواعيد. بقي مدمناً على الإذعان لمجلس الحكم العراقي الذي كان بطيئاً أو مستقعاً على صعيد اتخاذ لقرارات – على أصعدة الاتصالات، سياسة الضبط، شرعة سلوك الشرطة، استخدام ضباط سابقين، طرد معلمي كركوك. كانت القصة هي ذاتها على الدوام. النلس في سلطة التحالف المؤقتة متعبون، خائبون وانهزاميون. ليس ثمة إلا القليل ممن يحون لمشكلات، والوزارات العراقية شبه مشلولة.

"علينا أن نختار قضايانا العشر الأولى" قال ملر مشيراً إلى القضايا العشر المبرمج إنجازها قبل نقل السيادة.

ثم أورد خمس نقاط إضافية. أولاً، لا ينبغي الاستخفاف بأعداد العراقيين الذين يتامعون محطة الجزيرة الفضائية. أضاف أن الكهرباء، مشكلة ليس فقط لعدم توفر ما يكفي منها بل لأن العراقيين كانوا يعدّونها شيئاً يجب أن يكون مجانياً.

ثانياً، ثمة قطيعة بين بريمر وسانشيز. وليس ثمة أي اتصال فعال بين الأخير وقادة فرقه.

ثالثاً، سلطة التحالف المؤقتة لا تغادر المنطقة الخضراء على الإطلاق. أما مكتب السلطة المنطقية في المحافظات الـ 18 خارج بغداد فتساوي أوزانها ذهباً، غير أن الموجودين في المنطقة الخضراء لم يكونوا يقومون بأي عمل.

رابعاً، اجتثاث البعث مشكلة معقدة. أفاد ملر بأن هناك بعض الأشخاص الجيدين ممن ليسوا إلا على صلة واهية بالبعث يجري استبعادهم. بدت المسؤولية ضائعة بين سلطة التحالف ومجموعة اجتثاث البعث الخاضعة لإدارة ابن عم أحمد الجلبي. فالأخير كان يحتكر ملفات أجهزة الاستخبارات العراقية القديمة - وهي مصادر رئيسة للمعلومات عن المؤمنين حقاً بمبادئ البعث في ظل صدام - جاعلاً أمر تحديد مستويات التورط شبه مستحيل.

خامساً، كان لابد من التعامل مع العقود من منطلقات زمن الحرب. كانت سلطة التحالف المؤقتة تستدرج عروضاً محددة بفترات زمنية تصل إلى 90 يوماً. يا له من كلام فارغ! يا له من غرق في البيروقراطية! سلطة التحالف بالذات من شأنها أن توشك على الانطفاء في غضون 90 يوماً.

قام ملر بتكرار هذا الكلام على مسامع أكثرية النواب في مجلس الأمن القومي بمن فيهم آرميتاج وبيس. بادر أيضاً إلى مفتحة سكوتر ليبي (الدرّاج) آملاً في تسريب النقاط الأبرز إلى نائب الرئيس.

في غرفة تقديم التقرير إلى وولفوفيتز في البنتاغون لم يكن ثمة أي مكان إلا وقوفاً مع حشد من الواقفين من مشغل تخطيط فايث ومكتب واشنطن لسلطة التحالف المؤقتة. رأى ملر أن الغرفة لم يكن فيها شخص واحد سيفعل شيئاً حول ما لديه من أفكار حتى لو استطاع إقناعهم. فالمشكلة متمثلة، كما هي حالها على الدوام، بالتنفيذ.

بدأ ملر يدرج هذه البنود على جداول أعمال لجان النواب (نواب الوزراء والمنزاء أعضاء مجلس الأمن القومي). كيف نقلص فترات التعاقد؟ كيف نوفر للقادة العسكريين مزيداً من الأموال اللازمة لتنفيذ مشروعات الكيرب (CERP) الطارئة؟ ما الذي يحول دون تنميط تدريب عناصر أفواج الدفاع المدني العراقيين؟ كيف نقوم بفصل التفاحات الفاسدة وصولاً إلى عملية اجتثاث للبعث تكون أفضل، أعقل، أسرع؟

"سأصلح الأمر" قالت رايس للمر. اتصلت مع بريمر. أمرته: "ستعطي قادة الفرق مزيداً من المال". حصل قادة الفرق على مليار إضافي لصناديق المشروعات الطارئة، مشروعات برنامج الكيرب (CERP).

رأت رايس أن من الضروري إعادة إشراك الأمم المتحدة في قضية العراق. من قبل، كانت قد عارضت مطالبة جي غارنر بتدويل مرحلة ما بعد الحرب، غير أنها باتت الآن ترى ذلك ضرورياً. كانت الأمم المتحدة قد قلصت عملها كثيراً بعد الهجوم الإرهابي الذي استهدف مقراتها والذي أدى إلى مصرع 22 شخصاً بمن فيهم كبير مبعوثيها، سيرجيو فييرا دي ميلو.

آلت مهمة الأمم المتحدة إلى بوب بلاكول. لم يفاجأ حين وجد تشيني ورمسفلد غير متحمسين على الإطلاق. حذر رمسفلد قائلاً: "سنمكّن الأمم المتحدة من الدخول وسيفلت زمام الأمور من أيدينا،" موجهاً كلامه إلى بلاكول.

غير أن الأخير أصر على موقفه: "صحيح، ولكنني أعتقد أننا نستطيع أن نتدبر الأمور" وانطلق إلى حملة تعبئة وتجنيد. ركز على الأخضر الإبراهيمي الذي هو وزير خرجية جزائري سابق كان قد تولى رئاسة بعثة الأمم المتحدة في أفغانستان لمدة سنتين. وبرأي بلاكول، فإن الإبراهيمي ذلك السني العلماني البالغ الـ 70 من العمر كان دبلوماسياً من الطراز الأول، شخصاً قادراً بالفعل على المساعدة في كل شيء بدءاً بالتمويل وانتهاءً بعقد الانتخابات، مروراً بإشاعة الاستقرار.

"لا، بالمطلق" قال الإبراهيمي حين بادر بلاكول إلى التماس مساعدته. كان الإبراهيمي يمقت المقاربة الأمريكية ولم يرغب في أن يصبح أداة لخطة الولايات المتحدة العراقية أو ناطقاً باسمها.

غير أن بلاكول بقي مصراً على مواصلة الغزل الدبلوماسي. وفي كانون الثاني/يناير، أصبح الإبراهيمي كبير مستشاري الأمين العام كوفي أنان لشؤون السلم والأمن. ومع أنه ظل يقوم التركيز على العراق بالدرجة الأولى في عمله، فإن بلاكول ورايس قاما بدعوته إلى البيت الأبيض للضغط عليه وإقناعه بأن يساعد في موضوع العراق. دلف باول إلى المكان خلال الزيارة، كما أن بوش تحدث مع الإبراهيمي لبعض الوقت.

المغازلة فعلت فعلها، وذهب الإبراهيمي وبلاكول إلى العراق. افتراضياً، عاش الرجلان معاً هناك مدة ثلاثة أشهر. ولأن السيادة كانت موشكة على الانتقال فإن

الإبراهيمي نبه بلاكول إلى ضرورة فعل شيء بالنسبة إلى السنّة الذين كانوا يديرون الأمور في ظل صدام. فهؤلاء كانوا مدمنين على امتيازاتهم - أولى الطوائف على صعيد المناصب في الأكاديمية العسكرية، في كليات الطب، وفي سائر الميادين الأخرى دون أي استثناء تقريباً. قال الإبراهيمي، مشيراً إلى الشيعة المرشحين لأن يحكموا: "إذا عوّلتم على جميع هؤلاء المنفيين الذين لا يتمتعون بأي جذور سياسية حقيقية في البلد، فإن من شأن الوضع أن ينقلب إلى فوضى مرعبة".

حاول بلاكول أن يقيم جسراً مع السنة الذين لم يكونوا في الحقيقة سوى خُمس السكان(*)، وأن يضمن بقاءهم منخرطين. ففي أحد اللقاءات مع زعيم سني بارز، قال: "أريد طمأنتك إلى أننا عازمون على تمكين السنة في هذا العراق الجديد من التمتع، على جميع الأصعدة، بمكانة وامتيازات متوازية مع دورهم وعددهم في المجتمع العراقي".

رد السني مخاطباً المبعوث السابق إلى الهند: "يبدو أنك، يا سيادة السفير لا تفهم. نحن نريد أن نحكم العراق".

كانت تلك لحظة مرعبة بالنسبة إلى بلاكول الذي أحس بأن تكيف السنة مع حكم الأكثرية الشيعية من شأنه أن يستغرق جيلاً أو اثنين.

يوم الأربعاء الواقع في 31 آذار/مارس 2004، هاجم متمردون في مدينة الفلوجة العراقية رتلاً صغيراً من سيارات السباق الخفيفة وقتلوا أربعة من الحرس الأمنيين الأمريكيين العاملين بوصفهم متعاقدين مستقلين من الولايات المتحدة. اثنتان من الجثث المشوهة والمحروقة على نحوٍ بالغ البشاعة للأمريكيين عُلقتا على الكوابل الفولاذية للجسر الرئيس العابر للفرات الذي يطلق عليه الجنود الأمريكيون لقب جسر بروكلين. الصور التي انتشرت على نطاق واسع مع حشود عراقية محتفلة ابتهاجاً في الخلفية ما لبثت أن أصبحت أحد أبشع رموز الحرب، أهوالها وعجز أمريكا.

ذلك المساء، في الساعة 6:30 بواشنطن، في خطاب ألقاه في فندق ماريوت وارلان بارك بمناسبة جمع التبرعات لحملة بوش - تشيني، قال بوش: "مازلنا نواجه أوغاداً وإرهابيين في العراق ممن سيواصلون، على ما يبدو، قتل الأبرياء بدلاً من التسليم بترسخ الحرية. وهذه المجموعات من القتلة تحاول أن تزعزع إرادتنا. لن ينجح "الزعران" والقتلة في إخافة أمريكا. إننا عازمون على ضرب الإرهابيين في العراق بقوة".

(*) قبل سقوط بغداد في عام ٢٠٠٣م كان السنة يمثلون ما نسبته ٧٠٪ من مجمل الشعب العراقي، أما بعد السقوط ومحاولة الأكراد الانفصال في إقليم خاص (كردستان) وبسبب القتل والتهجير الطائفي فقد انخفضت النسبة إلى ٥٠٪، (المراجع).

وعد بريمر: "لن يمر موتهم دون عقاب". كانت الفلوجة، وهي مدينة ذات نحو 250.000 نسمة، على الفرات، على مسافة نحو 50 ميلاً إلى الغرب من بغداد، قلب عالم الإجرام والعصابات، بؤرة بالغة السوء إلى درجة أن صدّاماً نفسه لم يبال بترويضها. كانت المدينة قد أصبحت الآن المركز الرئيس لحركة التمرد السنية. إذا استطاعت القوات الأمريكية الاستيلاء على المدينة فإنها ستكون قد أنزلت ضربة كبيرة بالمتمردين. قال بوش موجهاً كلامه إلى الجنرال أبي زيد "استعد لخوض المعركة، إذا لم يتد حل هذه المسألة خلال 48 ساعة، فأنت مطرود".

بدوره سارع أبي زيد إلى نقل الأمر إلى الجنرال سانشيز، قائد القوات البرية الأمريكية في العراق. وحدات المارينز الأمريكية المتمركزة حول الفلوجة كانت ستبدأ هجوماً شاملاً على المدينة.

بالنسبة إلى بريمر، لم يكن ما يجري واضحاً. لم يطلع على رسائل العمليات العسكرية الأمريكية. والأسوأ من ذلك هو أنه كان ثمة نوع من المسافة الشخصية مع انهيار فعلي لقنوات التواصل بينه وبين سانشيز. كان الرجلان من عالمين مختلفين. فسانشيز ترعرع فقيراً في بلدة ريوغراندي التكساسية الصغيرة الواقعة على الحدود المكسيكية. عاش مع أشقائه وشقيقاته الخمسة في بيت بغرفة نوم واحدة دون تمديدات صحية مناسبة في نهاية أحد الأزقة الترابية. كثيراً ما كان طعامه الوحيد الأرز بالفول. غير أن سانشيز ما لبث أن أنقذ نفسه إذ حصل على شهادة الرياضيات من الايه آند آي التكساسية وتفوق في الجيش.

أما بريمر، الناشئ في بلدة كنعان الجديدة الكنتكية المرفّهة وخريج كليتي إدارة الأعمال في ييل وهارفارد، فكان من الضفة الأخرى لنهر الحياة. وكما قال أحد المقربين منه فإن "نخبوية جري المتأستذة"، بصرف النظر عما إذا كانت مقصودة أم لا، كانت ملموسة في طريقة تعامله مع سانشيز.

كان الأخير جنرال النجوم الثلاثة الأصغر سناً في الجيش. كان قد عُين في أهم منصب قيادي ميداني أمريكي ولكن مع هيئة أركان متواضعة من حيث العدد والتجربة. في 2006 أقر رمسفلد في إحدى المقابلات بأنه لم يشارك بل وحتى لم يُنبه إلى أن جنرال ثلاثة نجوم صغير السن كهذا قد عُين في مثل هذا المنصب الحساس والدقيق المتمثل بقيادة الجبهة العراقية. قال رمسفلد: "لقد طلبت من الآخرين أن يفكروا بالأمر

كي لا نكرر الخطأ". على امتداد نحو ستة أشهر بعد إتمام المعركة الرئيسة في الفلوجة من أيار/مايو 2003، أضاف رمسفلد، كان ثمة قرارات تُتخذ - بما فيها قرار تعيين سانشيز - دون أن يطلع عليها. "شعرت بقدرٍ من الأسى بعد عام أو نحوه حين بدأت أطلع على كل تلك الأشياء التي حدثت بسرعة هائلة دون أن أنتبه إليها، وقد أحزنني فعلاً ما جرى للجنرال سانشيز. أعتقد أنه أُقحم في وضع كان صعباً".

مع شروع الجيش في الاستعداد لشن هجوم شامل على الفلوجة، وجه الإبراهيمي تحذيرات قاسية إلى بلاكول، مهدداً بسحب بعثة الأمم المتحدة إذا ما هوجمت المدنة العربية السنية. كان الإبراهيمي عاكفاً على اجتراح حكومة سيادة قادرة على تولي السلطة. وأي هجوم على الفلوجة كان من شأنه، حسب رأيه، أن ينسف أي إمكانية لتحقيق ذلك لأن كلاً من الأمم المتحدة ومجلس الحكم العراقي المؤقت كانا ضد مثل هذا الهجوم. وفقدان الأمم المتحدة ومجلس الحكم كان يمكن أن يعني فقدان البلد.

تفهمت رايس الملابسات. فعدم وجود حكومة كان من شأنه أن يعني خسرة الحرب. فالمشكلة الأمنية باتت آخر المطاف متداخلة مع المشكلات السياسية. كذلك عبر بريمر عن نوع من اليقين. صحيح أنه لم يكن يستطيع أن يحسم حول ما إذا كان من شأن أي هجوم أن يفضي إلى نسف مجمل العملية السياسية، إلا أن القيادات السنية بيّنت بوضوح أنها ستستقيل، مما كان سيؤدي إلى نقل السيادة إلى الشيعة وحدهم. ورطة بشعة.

تابع بريمر وبلاكول الجنرال أبي زيد، معلم الجنرال سانشيز، على شاشة الدرة التلفزيونية المغلقة عاكفاً على تقليب موضوع جدوى الاستمرار في الإعداد لهجوم شامل.

قال أبي زيد في أحد المنعطفات: "علينا أن نُقْدم على الأمر الآن وبزخم، وأن ننجز هذه المهمة لأن شبابي باتوا أشبه بالبط الحاضن للبيض هناك". أضاف أبي زيد أن من المحتمل خسارة الحرب ما لم يتم تطهير الفلوجة. "انسوا السياسة! علينا أن نفعل هذا. ثمة خسائر بشرية نتكبدها". وفي المؤتمر التالي على التلفزيون تغيرت لهجته إذ قال: "إذا قمنا بتطهير الفلوجة فسوف نواجه ثورة عربية في أمكنة كثيرة وبعيدة خارج العراق".

صُعق بلاكول بمدى خطأ وعاطفية القائد الميداني الذي بدا انفصامياً مئة بالمئة.

كذلك في مجلس الأمن القومي، رأى فرانك ملر أن أبي زيد توقف فجأة عن أن يبدو مثل قائد في الميدان. قال أبي زيد لملر: "ربما لا يتعين علي أن أستعد. قد لا نكون مضطرين لاجتياح المكان".

شعر ملر بالقلق خشية أن يكون أبي زيد فاقداً لأعصابه مما دعاه إلى التعويل على صداقته القديمة لكولن باول.

قال ملر لباول عبر خط الهاتف الآمن: "عليك أن تفاتح جون أبي زيد. لابد لك من أن ترفع من معنوياته. أضاف ملر أن من الضروري تذكيره بأنه عسكري ويخوض حرباً، وسيكون التردد حول الفلوجة خطا مرعباً. ليس معروفاً ما إذا كان باول قد نقل الرسالة إلى أبي زيد أم لا.

في بغداد، بدأ مجلس بريمر للحكم الانتقالي يتمزق. زعيم سني يدعى عدنان الياتشة جي قال لبلاكول: "نحن نترك مجلس الحكم إلى غير رجعة". مرة أخرى قال الإبراهيمي لبلاكول إنه كان سيرحل ويسحب معه بعثة الأمم المتحدة.

عبر الاتصال التلفزيوني الآمن مع واشنطن قام بريمر وبلاكول بتحذير الرئيس: "علينا أن نتوقف!" قال بلاكول. لم يكونا قادرين على الحفاظ على تماسك مجلس الحكم من شأنه أن ينهار. كان من المفترض أن يتم نقل السيادة إلى المجلس. وبدونه لن يكون ثمة أي نقل.

بدأ بوش يتراجع. أي هجوم قد يكون مخاطرة. راح يطلق وابلاً من الأسئلة بطريقة غير مألوفة بالنسبة إلى بوش المعروف بثقته النموذجية. لماذا التحرك الآن؟ لماذا لا يتم ترك الوضع السياسي يتطور؟ ماذا عن ردود أفعال أكبر ضد الولايات المتحدة في مناطق العراق الأخرى؟ لم يقل بوش عبارة: "لا تهاجموا الفلوجة الآن!" غير أن المرجوين في الغرفة كانوا قادرين على قراءة لغة جسد الرئيس وتوجسه الجديد. أحس بريمر بأن أي رئيس يستطيع أن يقتل أي عملية بالأسئلة، ولم تكن أسئلة بوش إلا أمراً بعدم الهجوم.

كان بلاكول واثقاً من أن بوش كان يقدّر التأثير المحتمل للأمر على الانتخابات الرئاسية. وعملية نقل السيادة كانت إحدى ركائز سياسته العراقية. وتاريخ النقل الواقع في 30 حزيران/يونيو كان قد أُذيع بوصفه تقدماً عظيماً. وإذا لم يكن هناك من يستلم زمام الأمر، فإن من شأنه سياسة بوش أن تواجه قدراً أكبر من المصاعب.

جرى إلغاء الهجوم، غير أن وحدات المارينز تلقت أمراً يقتضي بالبقاء حول المدينة وفرض الحصار، لعل ذلك يؤدي إلى سجن المتمردين في الداخل.

قال الرئيس: "لا نستطيع أن نمكنهم من الذوبان ومغادرة الفلوجة. أقله هم هنك في الداخل". تحول الأمر إلى ما يشبه الوسواس بالنسبة إليه.

في البيت الأبيض، قام ملر باستعراض الوضع مع بلاكول الذي أبلغه بوجوب إبقاء وحدات المارينز حيث هي.

اعترض ملر: "ثمة جرحى، ثمة قتلة. لا تستطيع الحفاظ على معنويات أي وحدة عبر القول بأننا سنطوّق هذه المدينة وسنكتفي بتلقي الضربات. لا تستطيع أن تفعل ذلك، يا بوب".

رد بلاكول الذي كان مسكوناً بقدرٍ مفرط من الشك حول كون أعداد الإصابات كبيرة "حسناً، أطلعني على أعداد القتلى والجرحى!"

قال ملر، وهو في حالة ذهول: "أنت لم تخدم في الجيش يا بوب. أما أنا فكنت ضابطاً بحرياً. صحيح أنني لم أخدم في القوات البرية، غير أنني أعرف هؤلاء الشباب. لا تستطيع أن تتوقع فهم العيش في الغبار دون حمامات لأسابيع متواصلة دون أن يكون لديهم ما يفعلونه سوى التأمل: "إنني هدف"".

مستثنياً بعض الجنرالات، شكا بلاكول في أحد المنعطفات: "إنهم لا يعرفون ما يفعلونه. لماذا نخسر جنوداً في حوادث التعرض للمتفجرات المحلية، الآي إي دي، أو أدوات التفجير المحسَّنة التي كانت قنابل مصنوعة منزلياً من الذخائر، قذائف المدفعية أو المتفجرات الأخرى القديمة. كانت هذه أسلحة الإرهابيين المفضلة. درج المتمردون على تمويهها ببراعة وزرعها في الطرق، في أكوام القمامة، بل وفي أشلاء الحيوانات النافقة. ظلت هي وسائل القتل الأولى بالنسبة إلى أفراد القوات الأمريكية. تساءل بلاكول: "لماذا نكثر من التحرك في السيارات؟ علينا أن نبقى بعيدين عن الطرق. ما هي المهمات التي تلزم الناس بالتحرك على الطرق حيث يتعرضون للنسف؟ هل هم منتقلون فقط من مكان إلى آخر لمجرد التغيير؟"

رد عليه ملر: "اسمع يا بوب لديك قوة معينة هنا، وعندك قاعدة لوجستيات هناك. لابد لك من تمويل محطاتك ومواقعك".

"لنفعل ذلك كله من الجو" اقترح بلاكول.

شعر ملر بأن هذا الاقتراح كشف عن افتقار كامل لفهم ما تحتاج إليه القوات وماهية الحياة في مواقع أجنبية موبوءة بأعمال العنف. من شأن عشرات الإنزالات

الجوية المصغرة الشبيهة بذلك الذي تم لدى حصار برلين في سائر أرجاء الريف العراقي المعادي أن تكون خرقاء على نحوٍ فاضح.

في إحدى المراحل خرج بلاكول وبريمر إلى منطقة الفلوجة. بنظرهما شكل التمهل مثلاً حياً - المثال الأكثر إثارة - يؤكد أن الولايات المتحدة لم تكن، ببساطة، متوفرة على ما يكفي من القوات في العراق. لو توفرت أعداد أكبر من القوات لأمكن الاستيلاء على الفلوجة بسرعة مقبولة، برأيهما، بسرعة تكفي لتمكينهما من الحفاظ على تماسك مجلس الحكم إلى ما بعد الانتهاء من العملية.

في تلك الأثناء تقريباً، بادرت وكالة الاستخبارات المركزية إلى طرح ما بدا خطأ وسطاً. جنرال نجمتين، بعثي مرتد سبق له أن خدم في الحرس الجمهوري، قال إنه قادر على تشكيل لواء فلوجي من عراقيين وتطهير المدينة. ظهر الجنرال جاسم محمد صالح على شاشة التلفزيون مرتدياً بدلة وقبعة بيريه خضراوين. ما إن رأت رايس صورته على الشاشة حتى زعقت: "يا إلهي! كم يشبه صدام حسين! ألا يستطيعون اختيار شخص لا يبدو مثل صدام حسين؟"

ما لبث لواء الفلوجة المشلول والعاجز أن تعرض للانهيار. وبعد بضعة أشهر، التحق عناصره، بأكثريتهم الساحقة، بصفوف المتمردين.

ظل بلاكول على صلة وثيقة بالأكراد في الشمال. قال له مسعود البرزاني، وهو أحد الزعيمين الكرديين الرئيسين، إن الولايات المتحدة كانت قد اقترفت خطأ جسيماً حين حاولت إدخال السنة في العملية السياسية. فهؤلاء السنة المدمنون على الحكم في العراق كان لابد من هزيمتهم وسحقهم. كان لابد من إفهامهم بان عليهم أن يدفعوا ثمن الظاعات التي ارتكبوها ضد الآخرين - من الأكراد والشيعة. أضاف البرزاني أن الولايات المتحدة لم تكن لتستطيع أن تتحلى برحابة الصدر والتسامح إلا بعد إلحاق الهزيمة الكاملة بالسنة وفرض العزلة عليهم.

قال البرزاني إن الانسحاب من الفلوجة كان إخفاقاً استراتيجياً خطيراً. "كان ذلك كارثة لأنكم أبلغتم كل متمرد سني محتمل بأنه قادر على هزيمتكم بالانتظار، بأنكم، إذ ألحق بكم ما يكفي من الإصابات، لن تصمدوا إلى النهاية. كان ثمة رد مناسب على هذا".

"أي رد يا مسعود؟" سأل بلاكول.

"البيشمرجة" جاء الرد، مشيراً إلى الميليشيا الكردية الجبارة المؤلفة من نحو 50.000 أو أكثر من المقاتلين. "تعين عليكم فقط أن تطلبوا منا إرسال 30.000 من البشمرجة إلى الفلوجة. إذا عجزت وحدات المارينز فلتتول وحدات البيش إنجاز المهمة".

لم تكن المسافة بين الشمال الكردي والفلوجة سوى بضع مئات من الأميال.

رد بلاكول: "يبدو ذلك لي أشبه بوصفه لحرب أهلية يتولى فيها الكرد مهمة تطهير سُنَّة الفلوجة".

وافقه البرزاني قائلاً: "قد تكون ثمة مشكلة على المدى القصير، أما على المدى الطويل فليس الأمر على درجة كبيرة من الخطورة - وإلا فإن العبرة التي سيستخلصها هؤلاء السنة هي أنهم قادرون على هزيمتكم".

بات بلاكول مقتنعاً بانطواء المستوى المنخفض من القوات على عاقبة أخرى. فالضباط العراقيون المحترفون - حشود الرواد والمقدمين ممن كانوا في أواخر العقد الثالث وأوائل العقد الرابع من أعمارهم - كانوا قد صُعقوا بالهزيمة التي لحقت بهم وتملكهم الرعب كلياً إزاء الاجتياح الأمريكي العاصف. كانت حرب رمسفلد السريعة الحاسمة قد فعلت فعلها. غير أن بلاكول كان يرى أن الولايات المتحدة لم تكن قد قتلت ما يكفي من سلك الضباط العراقيين. صحيح أنهم كانوا قد نؤوا بأنفسهم عن حركة التمرد في بداياتها، إلا أن الفلوجة والتتاعي المطرد لأعمال العنف والهجمات كانا قد دفعا بهم إلى الاعتقاد باحتمال انطواء هذا التمرد على أفق ما، بأن التمرد قد يعيدهم إلى عروش السلطة. ما لبثت جموع المتفرجين أن راحت تمد يدها بالمساعدة إلى حركة التمرد أو تلتحق بصفوفها.

قال بريمر لبلاكول: "ما لم يتم وضع حد لهذا بسرعة، فإننا لن نتمكن من إنجاز مهمتنا".

وهناك في البيت الأبيض ومجلس الأمن القومي، قال بلاكول لرايس وهادلي بن على مجلس الأمن القومي أن يجري نوعاً من المراجعة العسكرية. ما طبيعة الاستراتيجية العسكرية؟ ما طبيعة عمليات الانتشار العسكرية ومستويات الوحدات؟

وافقت رايس على الفكرة وعبرت عن قدرٍ كبير من الخيبة إزاء رمسفلد والبنتاغون، غير أنها لم تعد قط بالإلحاح على الأمر. لم يكن بلاكول، الذي كان لا يزل

يسير إلى نفسه على أنه غودزيلا، ورداً خجولاً. وبوصفه رئيساً سابقاً لرايس في مجلس بوش الأب للأمن القومي كانت لديه فرصة لممارسة الضغط. غير أنه لم يرد أن ينحدر إلى وقاحة طرح سؤال: "وما الذي ستفعلينه لمعالجة الوضع؟" كانت رايس قد أقامت حاجزاً خفيفاً، وفضّل بلاكول أن يبقى حريصاً على ألا يبدو ساعياً إلى التدخل في علاقتها مع الرئيس.

كذلك مارس بلاكول نوعاً من الضغط على هادلي بشأن الاستراتيجية العسكرية. رد عليه نائب مستشارة الأمن القومي قائلاً: "إذا كانت لدينا استراتيجية عسكرية ما، فأنا لا أستطيع أن أراها وأتعرف عليها. ولعل الأسوأ من ذلك هو وجود استراتيجية عسكرية معينة ولا يريد المسؤولون إطلاعنا عليها أو هم مفتقرون إلى مثل هذه الاستراتيجية".

وثمة كان، برأي بلاكول، فرانك ملر المسكين العاكف على البحث عن حلول. لم يكن الرجل - ملر - يعرف معنى التعب، إذ ظل دائباً على توفير المساعدة للقوات في العراق المشغولة بنقل المولدات الكهربائية أو حراسة خطوط الأنابيب أو توفير أمن طرق المواصلات والنقل. قدّر بلاكول أن حضور اجتماعات ملر لم يكن مجدياً. فتلك الاجتماعات لم تكن سوى حلقات شكوى من الخيبة واللاجدوى.

كان بلاكول قد احتاج لبعض الوقت كي يكتشف الخطأ الفعلي، أما الآن فبات يتعبر بأنه مستوعب للمسألة استيعاباً كاملاً. لم يكن ثمة أي مجال له هو، لرايس، لهادلي أو لملر على صعيد إصلاح الوضع في العراق، لأنهم لم يكونوا ممسكين بمفتاح المشكلة الحقيقية: لم يكن ثمة ما يكفي من القوات. كان الجميع ينحرفون ويتوهون في الاستغراق بحل إفرازات المشكلة الحقيقية ومشتقاتها. غير أن تلك المشكلات بقيت متعذرة الحل ما لم يبادر أحدهم إلى تصويب الخلل الفعلي المتمثل بعدم وجود أعداد كافية من القوات على الأرض.

بدلاً من قائمة المهمات الملحة ذات الأولوية العشر التي كان ملر قد عاد من العراق في آذار/مارس راغباً في الاضطلاع بها، باتت القائمة المعدلة لمهمات فريق التوجيه التنفيذي متضمنة 90 بنداً يفترض إنجازها مع حلول تاريخ 30 حزيران/يونيو، بعد أشهر قليلة، موعد نقل السيادة. مرة أخرى قال لنفسه: "لا جدوى. علينا أن نختار البنود العشرة الأكثر أهمية. إن رئاسة فريق التوجيه التنفيذي محبطة. تزايد ابتعاد الدفاع عن الموضوع. كان فايث يرسل شخصاً مختلفاً من جهاز العاملين في مكتبة

المتخصص بالتخطيط. وحين كان فايث يحضر شخصياً كان يرفض مناقشة القضايا زاعماً أنه لم يبحثها مع رمسفلد وبالتالي لا يستطيع الالتزام بطبيعة الحال. ومن ثم كان يعود مع موقف رمسفلد المتشدد القائم على العناد".

رأى ملر أنه لم يسبق له أن رأى مجموعة من الناس أقل قدرةً على الدفاع عن مصالحهم الخاصة. ميدانياً كان قادة الفرق يعرفون ما ينبغي القيام به من عمل، لا أنهم لم يكونوا يحصلون على الدعم. "أين هو رئيس هيئة الأركان المشتركة ديك ميرز؟" تساءل ملر. لماذا لم يكن ميرز هذا يضرب الطاولة بقبضته ويقول: "لماذا لا يحصل جنودي على الدعم المطلوب؟"

لاحظ ملر أن نَفَس رمسفلد في اجتماعات البيت الأبيض كان قصيراً. أحدهم أطنب في الكلام عن موضوع معين مفصِّلاً إياه كثيراً، ثم ما لبث رمسفلد أن بادر إلى اقتراح التحدث حول الموضوع نفسه مجدداً.

"إنه دكتاتور" قال ملر لرايس ذات يوم.

"لا، ليس صحيحاً".

"هيا، كوندي، أنا هو من يقول ذلك".

وفي إحدى المرات علقت كوندي قائلة: "إن دون هو دون ولا أحد غيره. علينا أن نتعامل مع الواقع". اكتشف ملر بوضوح أن تحدي رمسفلد كان خارج حدودها.

صدر كتابي **خطة الهجوم** في نيسان/أبريل 2004. تحدث الكتاب عن أن تنت كان قبل الحرب بثلاثة أشهر قد أبلغ الرئيس مرتين في اجتماعين في المكتب البيضوي بأن قصة الاستخبارات عن أسلحة الدمار الشامل العراقية كانت "خبطة عشواء". ومشهد مدير وكالة الاستخبارات المركزية المفعم بالحياة وهو يرفع يديه مقلداً كرة السلة المخترقة للخيوط لفت أنظاراً كثيرة. كنت قد اقتبست كلام الرئيس المسجل في الكتاب مؤكداً أن تنت كان قد أصر على مثل هذه التأكيدات.

اتصل تنت بآندي وشكا بمرارة من تمكين أحد المراسلين من اقتباس مقاطع من محادثات حساسة جرت في المكتب البيضوي.

تقاسم تنت غضبه مع آرميتاج.

قال الأخير: "انتهى الأمر يا جورج. أصبح ذلك من الماضي. أحدهم يورد القصة. إنه الشيء الأخير الذي ينبغي له أن يثير قلقك. أنا صديقك يا جورج. أنا لا أنتقدك. ولكن هذه هي واشنطن. ضربة "خرائية" واحدة تزيل "عشرة شباب من نمرة عطا". نقطة". كانت بشعة، حقيرة، ظالمة، ولكنها صادقة، ودون أن تكون قضية جدير بالمبالغة في القلق بشأنها.

بقي تنت مهموماً. الثقة تبخرت.

لاحقاً زعم تنت أنه لم يتذكر أنه تفوه بعبارة "خبطة عشواء" مع أنه لم يدحض حصول ذلك. أكد أن الاجتماع كان لتحديد المعلومات الاستخباراتية التي يمكن نشرها وتعميمها "ترويجاً" لقضية الحرب. هذا صحيح كما أوردته في **خطة الهجوم**. غير أن ترويجاً عاماً للحرب يصعب أن يكون "خبطة عشواء" إذا لم يكن مدير وكالة الاستخبارات المركزية مقتنعاً بأن المعلومات الاستخباراتية الكامنة في العمق كانت هي الأخرى "خبطة عشواء". من الواضح أن تنت كان مؤمناً بأنها كذلك. وبما أن تقديرات الاستخبارات القومية لثلاثة أشهر سابقة قد أكدت دون لبس أن العراق كان حائزاً على أسلحة كيميائية وبيولوجية، فإن من غير المستغرب أن تنت كان مؤمناً. إنه محق حين يؤكد أن عبارة "خبطة عشواء" التي أطلقها لم تكن السبب الكامن وراء إقدام الرئيس على اتخاذ قرار الحرب. يعتقد تنت أن بوش كان قد سبق له أن اتخذ قراره من قبل.

بعد سنة واحدة من نشر كتاب خطة الهجوم، حضرت ندوة عامة في لوس أنجلوس حيث سئل تنت أمام 5000 شخص عن عبارة "خبطة عشواء".

"جاب تنت قائلاً: "لعلهما الكلمتان الأكثر غباءً اللتان سبق لي أن تفوهت بهما".

# 28

أواخر نيسان/أبريل بثت قناة 60 دقيقة الثانية صوراً لموقوفين عراة مُقلنسين بل وحتى مرسَّنين يجري تكويمهم أو استجوابهم بفظاظة مفرطة في سجن أبو غريب بالعراق، فيما كان حراس من الجيش الأمريكي يتفرجون مبتسمين. سارع سيمور هيرش من النيويوركر إلى نشر تفاصيل تحقيق سري للجيش يوثق سوء معاملة المحتجزين. العشرات من صور السجناء المجنونة والفظيعة أغرقت شاشات التلفزيون. صفحات الجرائد ومواقع الإنترنت.

لم يتردد رمسفلد والجنرال ميرز في الاستخفاف بأهمية الحدث. أعلن الأول على الملأ أنه لم يكن قد نظر إلى الصور، مضيفاً: "أعتقد أنني سألتُ عن الصور وعلمت أن ليس لدينا أي نسخ". أما ميرز فسئل في أحد برامج يوم الأحد عما إذا كان قد رأى صور تحقيقات الجيش في أبو غريب ورد قائلاً: "لم أطّلع على التقرير".

"بوش يوبخ رمسفلد بعيداً عن الأنظار" كان عنوان صفحة **الواشنطن بوست** الأولى يوم 6 أيار/مايو، 2004. تحدثت المادة عن أن الرئيس كان قد وجه اللوم إلى رمسفلد بشأن فضيحة أبو غريب وكان مستاء ومنزعجاً من أسلوب رمسفلد في معالجة المسألة.

تساءل رمسفلد أمام أركانه عن احتمال أن يكون أحدهم في البيت الأبيض قادراً على التوهم بأن من شأن تواصل مثل هذا النوع من حملات الثرثرة والوشاية الهامسة أن يساعد الرئيس، بحق الجحيم. ثمة كان على الدوام شخص في البيت الأبيض يرى فناً سياسياً رفيعاً في إظهار الرئيس خشناً، متشدداً مع الوزراء وقادراً على ركلهم في أي وقت. كيف يمكن لإظهار وزير الدفاع مأزوماً أو ضعيفاً، بل وحتى مشبوهاً، مفتقراً إلى "الثقة الكاملة" من جانب رئيس الجمهورية أن يكون مفيداً لهذا الرئيس المنخرط في حرب؟ لابد للرئيس، كما للجميع، من الوضوح. وأضاف رمسفلد أنه كان سيرحل إذا تبين عليه أن يفعل، إذا دقت ساعة الرحيل. قرر فرض الوضوح والصراحة.

في اليوم التالي، يوم 7 أيار/مايو، أدلى الوزير بشهادته أمام الكونغرس. رداً على سؤال عن اعتزامه الاستقالة قال رمسفلد: "سؤال وجيه. بما أن إعصار النار قد هب فقد عكفت طويلاً على تأمل المسألة". كذلك أفاد لجنة القوات المسلحة البرلمانية قائلاً: "لو اعتقدت بعدم قدرتي على أن أكون فعالاً، لما رغبت، بكل تأكيد، في متابعة الخدمة. يتعين علي أن أتصارع مع هذا الأمر".

ما لبث الإيحاء الخجول بأنه لم يكن قد وصل بعد إلى محطة اتخاذ القرار أن أطلق سيلاً من الدعوات الصادرة عن مساعدي رمسفلد من البيت الأبيض فور انطلاق الكلمات من فم الأخير.

في اليوم التالي تحدثت **النيويورك تايمز** في مادة صفحتها الأولى عن أن من شأن رايس ألا تكون منزعجة إذا أقدم رمسفلد على الاستقالة. نُقل عن شخص مقفل قريب من رايس أن رمسفلد "قد أصبح، على ما يبدو، عبئاً على الرئيس، وكان هو السبب في تعقيد المهمة في العراق".

وبعد يومين اثنين، يوم الاثنين الواقع في 10 أيار/مايو، قام بوش بزيارة البنتاغون والتقى رمسفلد الذي عرض الاستقالة.

قبيل الظهر، خرج بوش إلى الجمهور بصحبة كل من تشيني، باول، رمسفلد والجنرال ميرز.

ملتفتاً إلى رمسفلد قال بوش: "إنك تقوم بعمل ممتاز. أنت وزير دفاع قوي، وأمتنا مدينة لك بالامتنان".

في إحدى المقابلات ذكّرنا رمسفلد مصرحاً: "قدمتُ استقالتي الخطية مرتين. إنّ أنه ردها في المرة الأولى قائلاً "لا". أما في المرة الثانية فأعادها إلي غير أنني رددتها إليه وقلت له: "يجب أن تحتفظ بهذه". إلا أنه قال: " لا". تعلمون أنه لم يكن يريدني أن أذهب. وهو يعلن ذلك للملأ".

سألت رمسفلد عن مضمون الخطابين. أفاد "واحدة كانت قصيرة نسبياً، والأخرى طويلة نسبياً". ولم يشأ أن يضيف أي شيء على ذلك.

مع النقل الوشيك للسادة إلى العراقيين، حوّل باول اهتمامه نحو افتتاح سفارة في بغداد. إنها فرصة، ولكنها غير مألوفة. في ظل الشروط الطبيعية لا تعني أي سفارة

أمريكية سوى أن وزارة الخارجية هي صاحبة القول الفصل. إلا أن الشروط كانت بعيدة عن أن تكون طبيعية. كان من الصعب معرفة ما قد يحصل، وأراد باول أن يبقى مستعداً. قبل بضعة أشهر كان قد استدعى كلاً من آرميتاج وفرانك ريكارديون، سفير الولايات المتحدة في الفلبين وهو يعمل في وزارة الخارجية منذ 26 سنة.

كان باول قد أمرهما: "لابد للأمر من أن يكون بالغ الجدية وأن يتم تنظيمه بأقصى درجات الدقة لأن هؤلاء الشباب لا يخلّفون سوى الفوضى التي يتركونها لنا نحن. وعلينا أن نكون جاهزين مع حلول فصل الصيف لنتولى المهمة دون إفسادها".

من الذي ينبغي أن يكون سفير الولايات المتحدة الجديد؟ راح كل من البيت الأبيض، البنتاغون وباول يضعون القوائم.

جون نغروبونتي البالغ من العمر 64 عاماً، سفير الولايات المتحدة في الأمم المتحدة قرر أنه راغب في الوظيفة. ينتمي الرجل إلى المدرسة القديمة في السياسة الخارجية. لعله من الصنف المنقرض. لم يعد هناك أناس يشبهونه. مثّلاه الجديران بالاقتداء هما إلسوورث بنكر وهنري كابوت لوج، سفيرا الولايات المتحدة في فيتنام اللذان كانا قد ذاقا مرارة خوض غمار مكافحة التمرد والحرب الأهلية. كان نغروبونتي قد عمل في السفارة الأمريكية بسايغون بين عامي 1964 و1968 وهو في العقد الثالث من العمر، وكان يؤمن بأن السفراء ليسوا إلا منفذين لبرامج وخطط وسياسات يضعها آخرون. كان نائباً لباول عندما كان الأخير مستشار ريغان للأمن القومي قبل نحو عقدين من الزمن. أمضى الجزء الأكبر من سنوات خدمته الأربعين في العالم الثالث. كان سفيراً للولايات المتحدة في كل من هندوراس، المكسيك والفلبين. لم تكن الحكومات الضعيفة وغير الفعالة غير مألوفة بالنسبة إليه. كان يرى أن غارنر وبريمر كانا مفرطين في التفاؤل إذ اعتقدا أن بإمكانهما إعادة بناء البلاد بسرعة. تمثلت المهمة الأولى، حسب رأيه، بإعادة فرض المرجعية المركزية في الحكومة العراقية.

اتصل نغروبونتي بباول وقال: "كنا، ديانا وأنا، نناقش الأمر" مشيراً إلى زوجه. "أعلم أنكم تبحثون عن أسماء، وأنا مستعد لتولي المنصب إذا طُلب مني".

متطوع! إحدى القواعد غير المكتوبة في الجيش الذي خدم فيه 35 سنة كانت تقول بالامتناع المطلق عن التطوع. غير أنه رأى أن نغروبونتي دبلوماسياً كامل الأوصاف مئة بالمئة. كان الاضطلاع بمهمات السفير في الأمم المتحدة واجباً ثقيلاً في إدارة بوش.

كان باول يرى أن أداء نغروبونتي بالغ الجودة، إذ عمل داخل منظومة الأمم المتحدة مع الإصغاء إلى توجيهات باول. وحين كانت رايس تلاحظ أن باول والسفير في الأمم المتحدة بالغا في الأممية، كانت تبادر إلى إرسال اليوت آبرامز لمراقبة نغروبونتي. كان باول يعتقد أنها كانت راغبةً في شد البراغي وهادفة إلى زيادة تجهم هذا الدبلوماسي الدمث (الغريبة).

مرة قال نغروبونتي لباول: "لا أستطيع أن أطيق هذا. لا أريد البقاء في المنصب".

رد عليه باول مواسياً "فليذهب إلى هناك يا جون. سوف يرى أنك تقوم بعمل ممتاز. لن يكون إلا عامل إزعاج بين الحين والآخر. ولكن ذلك يبقينا في منأى عن التجسس اليومي في حال عدم وجوده؛ كان نغروبونتي أطول عمراً من اليوت آبرامز.

حين قام باول بتعويم اسم نغروبونتي في البيت الأبيض، لم يتم تلقف الاسم مباشرة. غير أن الرجل كان قد حقق نجاحاً جيداً على امتداد ما يزيد على سنتين في الأمم المتحدة، وكانت أسهمه في البيت الأبيض قد ارتفعت. كان ثمة إجماع على عدم وجود من هو أفضل منه، ناهيك عن أنه كان قد تطوع.

كان لدى الرئيس سؤال واحد لنغروبونتي: "هل تؤمن بأن الديمقراطية ممكنة في العراق؟"

جاء جواب السفير دبلوماسياً: "لا أعتقد أنها فوق فطنة الإنسان".

وقع اختيار باول ونغروبونتي على جيمس اف جفري، سفير الولايات المتحدة في ألبانيا، لشغل المنصب الثاني في السفارة الجديدة - نائباً لرئيس البعثة - ببغداد. كان جفري نائباً في سفارات الولايات المتحدة بتركيا والكويت. وبوصفه ضابط سلك خارجي محترف كان قد خدم في الجيش ثماني سنوات، بما في ذلك فيتنام. كان جفري وهو البوسطُني الذي يبلغ طول قامته ست أقدام وثلاث بوصات ذو الرأس المغطى بشعر أبيض خفيف، وصاحب المشية المتثاقلة المحببة، يتحدث بسرعة وبلغة مباشرة. لم يكن يطيق بطء البيروقراطية الحكومية.

ذهب جفري إلى بغداد مبكراً ليتقاطع مع بريمر نحو ستة أسابيع قبل وصول نغروبونتي. كتب يقول: "عاكفون نحن على إيجاد سفارة لسلطة التحالف المؤقتة المجنونة اللعينة هذه في قلب هذا المكان المثير للهزء والسخرية. تحت وابل من القصف اليومي - يا له من كابوس حقيقي!"

على الفور اكتشف أن هناك جفاء في علاقة بريمر مع الجنرال سانشيز الذي لم يتّن يريد أن يدخل في لعبة دفاع مع التمرد. عارض الجنرال تأمين الطريق الواصل إلى المطار ولم يرغب في إقامة دفاعات محيطية. تفهم جفري أن الجيش الأمريكي كان عضوية هجومية التوجه إلى حدٍّ كبير، كارهة لأعمال حفظ السلام، الخدمات المدنية، تدريب قوات أخرى والانخراط في لعبة الدفاع.

أدرك جفري أيضاً أن فكرة إيجاد جيش عراقي كانت مهزلة. جاء وولفوفيتز إلى العراق لوضع دراسة شاملة عن تدريب الجيش العراقي. كانت الولايات المتحدة قد اشترت طرود معدات لعشرات الكتائب العراقية - كميات من المدافع الرشاشة، المشاحنات، السترات الواقية - غير أن العقد كان قد تعرض للاحتجاج في إحدى المحاكم الأمريكية فتأخرت الصفقة بضعة أشهر. لم يكن ثمة أي جيش عراقي.

كان بريمر وسانشيز موشكين على الرحيل. فبعد ما يزيد على سنة كاملة من الكلام، كان رمسفلد قد قرر، أخيراً، تعيين جنرال أربعة نجوم قائداً داخل العراق وختار الجنرال جورج كيسي، المدير السابق لهيئة الأركان المشتركة للموقع.

مع حلول ربيع 2004 شعر وولفوفيتز بالخيبة. ربما بوصفه المهندس المثقف الرئيس لحرب من المحافظين الجدد، كان قد خاض حرباً صليبية شرسة دامت سنة كاملة لإقناع رمسفلد بضرورة أخذ مسألة تدريب قوات الأمن العراقية مأخذ الجد. كانت مقاومة الوزير تطيِّر العقل.

في إحدى مقابلاته اللاحقة قال رمسفلد إن كثيرين في البنتاغون كانوا يظنون أن القوات الخاصة وحدها هي القادرة على التدريب. وأضاف: "كلما التفتت من حولي، كنت أجد قوات النخبة مكلفة بمهمات تدريبية". "ليس ثمة ما يمنع عناصر المارينز و لجيش من تدريب الناس. ثم قلت: "دعونا نبحث عن متعاقدين يقومون ببعض التدريب"". بقي مصراً على ضرورة عدم رفع مستوى العراقيين إلى مستوى القوات الأمريكية. "ليست المسألة مسألة وصول إلى مستوى الفوز بجائزة جندي العام في فرت براغ. الوقت قصير للغاية، الأعداد كبيرة جداً، الدوران متطرف السرعة".

مرة كان وولفوفيتزر قد خَمّن على مسامع رمسفلد، في السر، أن الغزو لم يكن ليستغرق سوى سبعة أيام. إلا أنه كان قد توجس من احتمال قيام الصدّاميين والبعثيين السابقين بشن حرب عصابات مطولة. فالنظام السابق كان شراً خالصاً بنظره، صيغة من صيغ الفاشية الشرق أوسطية.

قام وولفوفيتز برحلته الأولى إلى العراق في تموز/يوليو 2003، واكتشف أن الأمن كان أسوأ بكثير مما توقعه. كانت الشرطة بحاجة إلى نفض كامل. التقى الجنرال سانشيز، القائد المعين حديثاً للقوات البرية في العراق. أصغى إلى سانشيز الذي قذف 10 مشكلات رشاً. المشكلة رقم: 10 كانت مشكلة تجنيد جيش عراقي جديد. رأى وولفوفيتز أنها كانت الأهم. كان متأكداً من أن من شأن عملية التدريب أن تستغرق سنتين إلى ثلاث سنوات.

غير أن وولفوفيتز اكتشف أنه لم يستطع إقناع رمسفلد. مع تصاعد أعمال العنف في خريف 2003، بادر رمسفلد باقتراح: "دعنا نرسل بعثة دراسية لبحث المتطلبات الفعلية لقوات الأمن العراقية". لم يحصل أي شيء. كان وولفوفيتز يرى أن الشرطة العراقية كانت مشكلة لا تقل هولاً عن مشكلة الجيش، إلا أنه لم يستطع أن يدفع معلمه إلى أي حركة. أمضى نحو ثمانية أسابيع وهو يسعى لإقناع رمسفلد بإيفاد بعثة دراسية. وبعد أن وافق رمسفلد أخيراً، شعر وولفوفيتز بأنه كان قد تعين عليه أن يمسك بيد الوزير لدى توقيع الأمر القاضي بإرسال الميجر جنرال في الجيش كارل دبليو آيكنبري الذي كان قد ساهم في بناء الجيش الجديد في أفغانستان، إلى العراق. في إحدى المقابلات أنكر رمسفلد الأمر معلقاً: "يا للسخف!" ثم أضاف أن النقاش الوحيد تركز على مستوى تدريب العراقيين. "أتذكر أنه في أثناء الحرب الفيتنامية، كنا، كما رأيت، عاكفين على تدريب الناس ليكونوا أطباء بدلاً من ممرضين. ومن كان الفيتناميون بحاجة إليهم هم عناصر التمريض. لم يكونوا بحاجة إلى رعاية مشافي من الطراز الأمريكي، هناك في تلك المرحلة".

تمثل استنتاج آيكنبري المؤكد بأن قيادة موحدة كان لابد من استحداثها لبعثة التدريب العراقية. وفي نيسان/أبريل 2004 تم إرسال ميجر جنرال الجيش ديفد بترايوس إلى العراق وسرعان ما مُنح نجمته الثالثة بوصفه رئيساً لعملية تدريب القوات العراقية. تعين عليه أن يبدأ من الصفر بعد انقضاء ما يزيد على سنة كاملة على الغزو.

في أيار/مايو 2004، التقى نغروبونتي وولفوفيتز قبل توجهه إلى العراق.

قال نغروبونتي: "أخشى أن نكون قد ارتكبنا الخطأ نفسه الذي وقعنا فيه في فيتنام حيث لم نبادر إلى الفتمنة إلا بعد فوات الأوان". كانت استراتيجيته الفتنمة مصممة لنقل مسؤولية القتال والأمن الداخلي إلى الفيتناميين. لم يتبنها الرئيس نكسون إلا في وقت متأخر من الحرب.

رد عليه وولفوفيتز: "صحيح، من المؤكد أنك وضعت إصبعك على المسألة الصحيحة. لا أظن أن الوقت قد فات، إلا أن تلك هي القضية".

تزايد إحساس وولفوفيتز بالتهميش من قبل رمسفلد الذي ألغى عدداً من سفرات نائبه إلى العراق. بقيت الأسباب غامضة على الدوام. كان رمسفلد يتحجج بكثرة العمل. قبل إحدى الرحلات قال رمسفلد ببساطة: "من غير الضروري أن تذهب أنت". أحس نائبه بأنه وحيد إلى هذا الحد أو ذاك. فالبنتاغون كان يستجيب للمسؤول الأول، لا لنائبه، وذلك كان مطلب المسؤول الأول.

مرة بعد قيام رمسفلد بإلغاء إحدى السفرات، نظم وولفوفيتز رحلة افتراضية في العراق بجعل كل من قادة الفرق الرئيسة مع هيئة أركانه يقدم مداخلة مدتها ساعتان عبر الاتصال الفيديوي الآمن. دخل على الخط ذات يوم سبت في نحو الساعة السادسة والنصف صباحاً وأمضى اليوم كله وهو يستمع ويسأل. تمثل الموضوع الطاغي بخيبة أمل القادة من أداء قوات الأمن العراقية. فالجيش الجديد، جهاز الشرطة وحتى حرس الحدود كانوا بحاجة إلى معدات أفضل، تدريب محسّن وقدر أكبر بكثير من الأموال. في شهادة علنية تعرضت لقدرٍ كبير من الإهمال، قام وولفوفيتز بإبلاغ لجنة القوات المسلحة في المجلس أن تدريب العراقيين كان القضية المركزية "حتى قبل الحرب". وأضاف أن "مفتاح هزيمة المتمردين" في الصراع مع حركة التمرد "هزيمة كاملة مشروطة بتدريب العراقيين وتجهيزهم وجعلهم قادرين على محاربتهم بأقصى سرعة ممكنة".

لم يسأل أحد من أعضاء اللجنة عن سبب التأخر أكثر من سنة في الوصول إلى هذا الاستنتاج قال وولفوفيتز لمعارف مقربين إن الأمر لم يكن إهمالاً مجرداً بل كان ناتجاً عن أن رمسفلد كان قد أعاق المحاولات الرامية إلى إطلاق عملية التدريب وتفعيلها في وقتٍ أبكر.

قال وولفوفيتز لأحد الزملاء: "لا أستطيع أن أفهم الأمر".

أجرى جهاز العاملين لدى لجنة القاضي سلبرمان الاستخباراتية الخاصة بأسلحة الدمار الشامل مئات المقابلات في دائرة الأسرة الاستخباراتية، وعوّلت كثيراً أيضاً على المقابلات التي أجراها فريق مسح العراق لديفد كي. اتفق سلبرمان وروب على حصر الاطلاع على بعض المعلومات السرية جداً بهما وحدهما دون غيرهما. لم يكونا

سيتقاسمانها مع آخرين في اللجنة. وفي مقابلة كانت في 2005 سألتُ سلبرمان عما إذا كان رمسفلد بين أولئك الذين قابلتُهم اللجنة.

"عاينا كثيراً لإقناع دون بالمجيء إلى اللجنة للرد على أسئلتها" قال سلبرمان. كن الأخير قد هدد بإحضاره بموجب مذكرة جلب، معتقداً أن رمسفلد قد لا يكون مدركاً لحقيقة تمتع اللجنة بمثل هذه الصلاحية، فأذعن الوزير. كان رمسفلد "شديد الحساسية إزاء حقيقة أن جهاز استخبارات الدفاع لم يكن قد تكلل بغار المجد" أضاف سلبرمان.

قلت إن بعض الجنرالات كانوا في شك بشأن أسلحة الدمار الشامل، وأدركوا قبل الحرب أنهم لم يستطيعوا إثبات وجود أي أسلحة دمار شامل في أي موقع.

تساءل سلبرمان عن أسمائهم.

أتيت على ذكر الجنرالات أبي زيد، ماك كيرنان وماركس.

علق سلبرمان: "مدهش. يؤسفني أننا لم نتحدث معهم".

قال سلبرمان إن تنت خضع للاستجواب، عن رغبة، ثلاث أو أربع مرات. استنتج أن تنت كان قد بالغ في التعويل على نتف معلومات استخباراتية صادرة عن أجهزة أجنبية. قال سلبرمان: "مسكين جورج. أعني أنه تأخر كثيراً في هذه العملية قبل أن يحاول اكتشاف الخطأ الجهنمي الحاصل، سبب الوقوع في مثل هذا الخطأ، والمدى الذي لا يصدق لغباء بعض القرارات".

أما نائب مدير وكالة الاستخبارات المركزية جون ماكلوخلين فقد أصر على أن إخفاق معشر الاستخبارات في موضوع أسلحة الدمار الشامل كان نتيجة "عاصفة كاملة،" أن كل شيء انقلب خطأ بغتة دون توفر أي قدرة على التوقع. "رأينا أن ذلك لم يكن إلا هراء" قال سلبرمان. "ثمة كانت بعض الأخطاء الأساسية. تمثل الأسوأ بالمولد الكيميائية". كان محللون قد عاينوا صور شاحنات صهريج عملاقة في العراق وقرروا أنها محملة بأسلحة كيميائية. "لم يكن الأمر إلا تخميناً، استنتاجاً. لم يكن ثمة أي دليل ملموس، غير أن المرء يستطيع أن يسلم بأن ذلك كان منطقياً" قال سلبرمان. غير أن المحللين ما لبثوا أن "استنتجوا أنهم كانوا يسرّعون العملية لأننا رأينا أعداداً كبيرة جداً من الشاحنات الأخرى. لم يبال أحد بإطلاع المحللين على حقيقة وجود أعداد إضافية من الشاحنات لمجرد أننا كنا نزيد من تركيز الأقمار الصناعية عليها. كان الأمر أشبه بـ مسدس يدوي رخيص سهل الإخفاء".

فيما كان بريمر عاكفاً على الإعداد لنقل السيادة إلى العراقيين، تشابك باول ورمسفلد في معركة أخرى. مرة أخرى، كان السؤال: من الذي كان سيضطلع بالمسؤولية؟ كان باول وشروبونتي عازمين على إقامة صرح سفارة الولايات المتحدة الأولى في بغداد منذ حرب الخليج في 1991. أراد باول أن تكون الخارجية هي المسؤولة.

جادل رمسفلد بأن ذلك لم يكن طبيعياً مع وجود 130.000 جندي في العراق. تواصل الجدل سجالاً. تمثلت إحدى القضايا الخلافية مسألة مبلغ الـ 18.4 ملياراً من الدولارات الذي كان الكونغرس قد وفره لصندوق الإغاثة وإعادة الإعمار في السنة السابقة. كان ذلك هو المال المخصص لإعادة البناء على صعيدي الاقتصاد والبنى التحتية. ما لبثت رايس ومعها هادلي أن انخرطت في المفاوضات المثقلة بالجفاء بين باول ورمسفلد.

أصرت رايس على وجوب الكشف عن الأمر بوضوح. فخلال الأشهر الثمانية الأخيرة من عهد بريمر في العراق كانت هي قناة الإعلام الاسمية رغم أن رمسفلد و لدفاع كانا مسؤولين على الورق. كفى. لم تعد مستعدة لترك موضوع صاحب المسؤولية تحت رحمة مزاج رمسفلد وأهوائه.

بعد تدخل مباشر من جانب الرئيس، تم إنجاز أمر من ثلاث صفحات. ففي 11 أيار/مايو 2004 وضع بوش توقيعه على التوجيه الرئاسي إلى الأمن القومي رقم: 36. وتوجيه الصفحات الثلاث السري هذا قضى رسمياً بنقل المسؤولية عن العراق من البنتاغون إلى وزارة الخارجية بعد إنهاء سلطة التحالف المؤقتة ونقل السيادة إلى العراقيين.

نص توجيه بوش على أن من شأن الولايات المتحدة أن تكون ممثلة في العراق بـ "رئيس بعثة تابع لقيادة وزير الخارجية" أي بسفير مؤهل لأن "يكون مسؤولاً عن إدارة، تنسيق ومراقبة جميع ما لدى الولايات المتحدة من موظفين، خطط وفعاليات في البلد باستثناء تلك الخاضعة لأمرة قادة المناطق العسكريين".

مع أن اللغة كانت مألوفة إلى حدٍّ بعيد، فقد كان ثمة رجحان واضح ومحدد لكفة الخارجية في قلب منطقة حرب. ونجاح الأنموذج كان مشروطاً بتعاون السفير الجديد نـروبونتي مع القائد العسكري كيسي. ولتأكيد الأمر والاطمئنان إلى إرساء أساس ما لعلاقة بين الرجلين، بادر بوش إلى عقد حفل عشاء صغير ضمهما مع زوجيهما في البيت الأبيض.

بات تشكيل حكومة انتقالية عراقية وشيكاً. همّ بريمر وبلاكول في البحث عن شيعي بارز لرئاستها. من المعايير أن يكون المرشح قوياً، قادراً على التعايش مع السنة ومؤهلاً للحصول على موافقة آية الله العظمى السيستاني. بدا بلاكول ميالاً إلى إياد علاوي، وهو طبيب عراقي في الثامنة والخمسين من العمر، ابن إحدى الأسر الشيعية القيادية العريقة كان جده قد ساهم في انتزاع استقلال العراق من المملكة المتحدة سنة 1932. كان قد نُفي إلى بريطانيا سنة 1971 ونجا من محاولة اغتيال في إنجلترا وهو في العقد الرابع من عمره، محاولة قيل إنها كانت من تدبير صدام حسين. كانت له علاقات واسعة مع وكالة الاستخبارات المركزية.

ما لبث بلاكول - غودزيلا أن أصبح مديراً لحملة العلاوي.

طرح الإبراهيمي، وهو غير مصدق، سؤال: "هل يُعقل أن يكون رئيس الوزارة الأول لهذا العراق الجديد عميلاً سابقاً لوكالة الاستخبارات المركزية مدة عشر سنوات ونيف؟" على بلاكول.

رد الأخير: "بلى، إلا إذا كنت تفضل عميلاً للاستخبارات الإيرانية".

لم يكن وولفوفيتز معجباً بالعلاوي لكون الأخير منافس الجلبي الرئيس، غير أن بريمر كان مؤيداً له وبقي ثابتاً في هذا التأييد. غير أن بريمر نبه جفري قائلاً: "مع أنه الرجل المناسب للعراق، فإنه يدعو للحذر. ليس هذا الزبون ديمقراطياً". فالعلاوي العلماني لم يكن إلا بعثياً جرى إصلاحه ولم يكن يحب ما كان يطلق عليه اسم "العمائم" - رجال الدين. وهكذا فإن القائد الجديد للعراق كان عميل وكالة استخبارات أمريكية سابق غير واثق بالديمقراطية مع نفوذ ضعيف لدى السيستاني ورجال الدين، الممسكين بالجزء الأكبر من أسباب السلطة.

تمت البرمجة لعملية نقل السيادة في 30 حزيران/يونيو، وكان متوقعاً أن يكون المتمردون عاكفين على التخطيط لموجة من العنف إبرازاً للمناسبة. كان بريمر استثنائي القلق إزاء المعلومات الواردة عن أن الهجمات كانت ستشمل أعمالاً تخريبية كبيرة لخطوط النفط والمصافي العراقية. في الأول من حزيران/يونيو اقترح سكوت كاربنتر، وهو من حفنة عاملين في جهاز سلطة التحالف المؤقتة كانت قد بقيت مع بريمر في العراق مدة الـ 14 شهراً كلها، فكرةً جديدة: كم من الإنجازات كانوا سيحققون في غضون الأسابيع القليلة مقابل كل الإرهاب والعنف المتوقعين يوم 30 حزيران/يونيو؟ ما الذي يمنع من نقل السلطة مباشرةً ومباغتة المتمردين؟

أثار الاقتراح إعجاب بريمر، غير أن محامي سلطة التحالف والبنتاغون أشاروا إلى وجود مشكلات حقوقية. أي سلة احتلال لم تكن قادرة على مجرد المبادرة إلى التملمة والرحيل بموجب القانون الدولي. يضاف إلى ذلك، ثمة كانت سلسلة طويلة من مختلف أنواع الأحداث الرسمية المبرمجة ليوم 30 حزيران/يونيو.

في 17 حزيران/يونيو اتصلت رايس ببريمر لتقول له أن الرئيس كان يريده أن يسير قدماً في تنفيذ التسليم المبكر. غير أن أعمال العنف كانت متواصلة بمعدل 60 هجوماً في اليوم، ولم يكونوا واثقين مئة بالمئة من أن الأمر سيكون ممكناً. مع حلول يوم 27 حزيران/يونيو راح بريمر يضغط بقوة من أجل إجراء عملية التسليم في اليوم التالي – قبل يومين، فترة كافية لمباغتة المتمردين. اتصل بالرئيس الذي كان في استانبول مع بلير وباول لحضور قمة الناتو.

"تبدو الفكرة جيدة بالنسبة إلي. لنسأل توني!" قال بوش لبريمر ثم التفت إلى بلير وقال: "ما رأيك يا توني؟" ما لبث بوش أن عاد بسرعة ليقول: "موافق، نعم تبدو الفكرة جيدة. أوكي".

نفذ بريمر ورئيس الوزراء العلاوي عملية النقل الرسمية بُعيد الساعة العاشرة من صباح يوم 28 حزيران/يونيو في احتفال بسيط في مكتب العلاوي. ومع حلول ساعة الظهيرة كان بريمر قد طار إلى خارج البلد على متن طائرة حرس جوي قومي ذات أربع محركات من طراز سي – 130. بقي السر مكتوماً. جل العاملين في جهاز السلطة المؤقتة للتحالف – وعدد كبير منهم كانوا سيتخلفون للعمل في سفارة الولايات المتحدة الجديدة – لم يعرفوا شيئاً عن عملية النقل المبكرة قبل حدوثها.

# 29

وصل نغروبونتي إلى بغداد في اليوم نفسه. كان توقعه العملي أن مهمة إشاعة الـيمقراطية كانت قابلة للتنفيذ وفرص النجاح في إلحاق الهزيمة بالمتمردين السُّنَّة أعلى من 50 بالمئة. طلب جفري من الجيش إعداد "سلايد" لخريطة بغداد تبين بدقة مجموعة الهجمات التي شنها المتمردون في أسبوع - نقاط حمراء للهجمات بالقنابل ذات الدفع الصاروخي، نقاط صفراء لإطلاق النار غير المباشر، نقاط خضراء للهجمات البرية. كان ثمة ما يزيد على 100 (مئة) - في بغداد وحدها.

قال جفري وهو يقدم السلايد إلى نغروبونتي لحظة وصوله "هذا هو مجمع سعارتك". كان الأمن هو القضية الرئيسة. "لسنا متمتعين بالأمن".

كان باول وايس قد أوصيا نغروبونتي أن يكون متساهلاً مع العراقيين. باتوا أصحاب سيادة. حذار تقليد دور جري بريمر للحاكم الاستعماري. وافق نغروبونتي وقارب وظيفته على أنها مهمة خارجية تقليدية - علاقات دبلوماسية مع بلد أجنبي. غير أنه سرعان ما اكتشف أن جل الأمور كانت معطلة ببساطة على الرغم من أن العراق كان متوفراً على "شراشيب" أي حكومة حديثة وأي مجتمع حديث. كان النقل في حالة فوضى. جميع الأشياء الأساسية كانت متآكلة. كان الوضع أشبه بوضع قرية بوتمكينية (نسبة إلى أحد قادة القيصرة الروسية كاترين الذي كان "يفبرك" قرى وهمية في أطراف روسيا في أثناء جولات القيصرة - المترجم). كانت الزراعة منهارة كلياً ونظام تقنين المواد الغذائية المستوردة كان في حالة فوضى. تعين على سفارة الولايات المتحدة ملاحقة كتب الاعتماد وحسابات فول الصويا عبر سلسلة من المصارف اللبنانية والتركية وإلا فإن الشعب كان سيجوع.

تمثل أحد أولى تحركات نغروبونتي بتحول نحو 3.3 مليارات من الدولارات من صندوق مشاريع الكهرباء والماء طويلة الأمد إلى حاجات أكثر مباشرة. أعطى الجنرال كيسي 2 مليار لأغراض الأمن ونحو 200 مليون في حسابات كيرب CERP ذات تأثير مباشر لأنها كانت تمكّن الضباط الأمريكيين من استخدام عراقيين ميدانياً حسب الحاجة.

جاء هذا التحول دعماً وتمكيناً لكيسي وبترايوس. كذلك ساعد المال الجاهز على تمتين العلاقة بين نغروبونتي وكيسي. قرر الأخير أن يتخذ لنفسه مكتبين - مكتب في معسكر النصر بالمطار وآخر في السفارة مقابل مكتب نغروبونتي في الجهة الثانية من الصالة. الرجلان، كلاهما، كانا مصممين على تجنب الصراع الذي أطلق عليه المخضرمون اسم "فيلم جري وريك" بين بريمر وسانشيز.

كان توفر الكهرباء أحد المؤشرات الأكثر بروزاً على التقدم الحاصل في العراق، وبالتالي فقد تم تركيز الجهود على شبكة الكهرباء المتداعية خلال صيف حمة الانتخابات الرئاسية الأمريكية. زادت الوفرة باطراد حسب معايير معينة. ما لبثت رايس أن وجدت نفسها وقد أصبحت بسرعة خبيرة في شؤون كهرباء العراق. كان من الأفضل استخدام الغاز الطبيعي النظيف وقوداً للمولدات غير أن سائر أنابيب الغاز الطبيعي الموجودة كانت قد تعرضت للنسف من قبل المتمردين. كان الديزل هو بدى المرتبة الثانية وقد كان ناقص العرض لأن المصافي لم تكن تعمل بطاقتها الإنتاجية الكاملة. وهكذا فإن المولدات الجديدة كانت تدار بزيت الوقود، إلا أن ذلك كان يفرض إخراجها من الدارة كل بضع أسابيع للصيانة. ومع حلول فصل الخريف كانت الشبكة ستنهار افتراضياً، وجاء اليوم الذي فقدت فيه نصف طاقتها.

◎ ◎ ◎

في 15 تموز/يوليو 2004، جلس ستيف هيريتس، مركز أبحاث رمسفلد القائم على رَجُل واحد، خلف حاسوبه وكتب تقريباً يقطر منه السم مؤلفاً من سبع صفحات بعنوان: "خلاصة مشكلات التخطيط والتنفيذ لما بعد العراق". ومع أنه ناقش خطط وسياسات ما بعد الحرب، وبريمر، فإن هدفه الحقيقي كان صديقه لمدة 37 سنة، دون رمسفلد. أدرجت المذكرة سلسلة من الأسئلة الصعبة:

- "لماذا لم يتول رمسفلد الإشراف عليه ]على بريمر [كما فعل مع فرانكس؟"
- "من اتخذ القرار ولماذا لم نبادر إلى إعادة هيكلة الجيش العراقي؟"
- "ألم يدرك أحد أننا سنكون بحاجةٍ إلى قوات أمن عراقية؟"
- "ألم يتصور أحد مدى أهمية الاستقرار وأفضل سبل بلوغه؟"
- "لماذا كان اجتثاث البعث بمثل هذا المستوى من الاتساع والعمق؟"

كتب هيربتس يقول إن "أسلوب عمل رمسفلد" كان "متعجرفاً، من الطراز الهالدرماني" نسبة إلى رئيس جهاز عاملي البيت الأبيض أيام نكسون: اتش آر "بوب" هالدرمان.

وأضاف هيربتس "بوصفه متردداً، على النقيض من صورته في أذهان الجمهور لم يحن ليقبل بأن بعض الناس في بعض الأمكنة كانوا أذكى منه... لا يثق إلا بعدد قليل جداً من الناس. شديد الحذر والحيطة. مصاب بعقدة القفازات البلاستيكية" - نزعة عدم ترك بصماته على القرارات.

كان رمسفلد "سليط اللسان في الغالب" خلال الاجتماعات. "لم يتورع عن تحقير أناس مهمين أمام آخرين".

"تميز بأسلوب استجواب المدعي العام. لدى سعيه إلى تحسين الإنتاج - كان نمط استجوابه يفضي دائماً تقريباً إلى نتائج معكوسة... خلاصة: هل أخطأ رمسفلد في الحسابات السياسية الأساسية لإدارته: إذ أخفق في وضع عملية إعادة بناء عراق ما بعد الحرب على سكتها في غضون 18 شهراً؟"

قام تنت بزيارة بوش وحده أوائل حزيران/يونيو. كان يريد الخروج من الحلبة. كان طبيبه قد أبلغه بأنه كان يخاطر بصحته. سبق له أن أصيب بجلطة قلبية قبل سنوات وهو من أركان مجلس كلنتون للأمن القومي.

عبّر بوش عن عدم رغبته في رحيل أي من أعضاء مجلسه الآن، في سنة الانتخابات الرئاسية.

كان تنت يعرف أنه ووكالة الاستخبارات الأمريكية كانا هدفين. فلجنة استخبارات مجلس الشيوخ كان عاكفاً على التحقيق في موضوع أسلحة الدمار الشامل لدى العراق، حيث كان سلبرمان وبوب يتوليان تقصي الحقائق. وتقرير لجنة 9/11 كان موشكاً على الصدور. أصر تنت على الاستقالة.

لم يبق أي خيار أمام الرئيس.

صدرت **الواشنطن بوست** يوم 4 حزيران/يونيو وعنوان صفحتها الأولى يقول: "تنت يستقيل من إدارة وكالة الاستخبارات المركزية؛ بوش يطري رئيس جهاز الاستخبارات، غير أن نقاداً يتحدثون عن هفوات حول حرب العراق". كان تنت قد ألقى خطاباً حزيناً في مقر قيادة وكالة الاستخبارات المركزية بلانغلي الفيرجينية، قبل يوم واحد، قائلاً إنه

كان تاركاً لرغبته في قضاء وقت أطول مع زوجه وابنه المراهق المتأهب للالتحق بالجامعة في السنة التالية. كان قد شغل منصب المدير مدة سبع سنوات، مع رئيسن للجمهورية، وقد ذاق حلو الوكالة ومرَّها في أثناء أحداث 9/11 وحربي العرق وأفغانستان. ترك المنصب رسمياً يوم 11 تموز/يوليو.

وبعد أحد عشر يوماً أطلقت لجنة 9/11 تقريرها. بين توصيات اللجنة تم إدرج استحداث منصب مدير للاستخبارات القومية يكون مسؤولاً عن الإشراف على مجمل الأجهزة الاستخباراتية بما فيها وكالة الاستخبارات المركزية.

شعر القاضي سلبرمان وبعض أعضاء لجنة أسلحة الدمار الشامل الآخرين بن لجنة 9/11 كانت قد قطعت عليهم الطريق. ما الهدف الآن؟ إذا حاولت اللجنة احتكار المسألة فإن من شأن البيت الأبيض أن يضيع غطاءه السياسي في قضية استخبارات أسلحة الدمار الشامل العراقية قبل أشهر قليلة من الانتخابات الرئاسية الأمريكية.

اتصل كارد مع سلبرمان وقال له: "يريد الرئيس أن تعلموا بأنه لا يرغب في ن تتوقفوا لمجرد قيام لجنة 9/11 بإطلاق تقرير". ثم اقترح "ماذا لو زودتمونا بتحليل هيكلي لتقرير 9/11، لتوصياته البنيوية؟"

وجه سلبرمان وبوب مذكرة إلى زملائهما الأعضاء حول توصيات لجنة 9/11 وأرسلاها إلى كارد. سارع سلبرمان وزوجه بعد ذلك مباشرةً إلى السفر إلى المناطق الغربية من الولايات المتحدة. توقف لتناول طعام العشاء في بيت تشيني بجاكسون هول الويومينية. "مفيدة جداً" قال تشيني عن المذكرة.

عبارة "نحن لا نطبِّق" كانت إحدى لوازم هادلي على مسامع فرانك ملر. فالتطبيق كان من مهام الوزارات والإدارات والوكالات المختلفة، مثل البنتاغون ووزارة الخارجية. أما دور مجلس الأمن القومي فكان هو التنسيق. إذا أخفق ملر في جعل الناس يعتمدون حلاً لمشكلة أو أخرى فإن توجيه هادلي قضى: "زودني أنا لأنجزها مع النواب." مشيراً إلى لجنة النواب. رأى ملر أن ذلك كان أشبه بالمهزلة. ما من شيء تم إنجازه على مستوى النواب.

أما لازمة رايس فكانت مختلفة كلياً. أبلغت ملر قائلة: "أنت تعرف كيف تقوم بالعمل. بادر إلى التنفيذ" إذا تعثر سير الأمور عبر القنوات الطبيعية.

كانت تلك إحدى التناقضات الكثيرة في حياة ملر اليومية ببيت بوش الأبيض.

أحس ملر بأن أحد أمثلة الإخفاق غير المبرر في إنجاز العمل كان متعلقاً بالسيبرنت (SIPRNET) (شبكة بروتوكول روتر السرية المصنفة)، التي كانت تستخدم لتخزين وإيصال المعلومات عن الاستخبارات، أوامر العمليات والبيانات التقنية الأخرى. فالمعلومات المصنفة على السيبرنت كانت مشتملة على خانة بعنوان "نوفورن" NOFORN - بمعنى محظور على الأجانب، وهو حظر كان شاملاً حتى القوات البريطانية والأسترالية المنخرطة في القتال جنباً إلى جنب مع الأمريكيين في العراق.

أحياناً كان الأمر يتجاوز حدود السُّخف والعبث. طيارون بريطانيون محلقون في طائرات مقاتلة أمريكية من طراز اف - 117 واف 15 إي لم يكن مسموحاً لهم أن يطلعو على أجزاء من البيانات السرية المصنفة تحت عنوان نوفورن. في مناسبة أخرى كانت معلومات استخباراتية جَمَعَها عملاء بريطانيون في العراق تُحول إلى مركز دمج المعلومات الاستخباراتية الأمريكية المكلف بخلط سائر المعلومات الواردة من مختلف المصادر وصولاً إلى منتج موحد. صدر التقرير ولم يتمكن البريطانيون من مجرد الإطلاع عليه بله الحصول على نسخة عنه. لأنه كان يحمل عبارة نوفورن (محظر على الأجانب).

شكا رئيس الوزراء البريطاني بلير ورئيس الوزراء الأسترالي جون هاوارد للرئيس مباشرة حول المسألة عدداً من المرات. وفي تموز/يوليو 2004، وقّع بوش توجيهاً، معموماً من قبل رمسفلد وجون ماكلوخلين بوصفه قائماً بأعمال مدير الاستخبارات المركزية، قضى بإلغاء العمل بموجب حظر النورفون بالنسبة إلى البريطانيين والأستراليين لدى التخطيط للعمليات العسكرية، عند التدريب مع الأمريكيين أو في أثناء الانخراط في فعاليات مكافحة الإرهاب. تحدث بوش عن التوجيه مع بلير وهاوارد قائلاً: "للتو وقعت أمراً". حُلت المشكلة.

غير أن ملر ما لبث أن اكتشف أن البنتاغون راح، بدلاً من تمكين البريطانيين والأستراليين على الإطلاع، يضع سيبرنت SIPRNET جديد منفصل أمامهم. فعلى موقع السيبرنت ثمة معلومات مخزنة منذ سنوات طويلة ولم يكن الجيش الأمريكي يريد تقديمها للبريطانيين والأستراليين. قد يتطلب تمشيط المعلومات وإعادة تصنيفها عدداً من الأعوام. كانت أوامر الرئيس تقضي بتمكين البريطانيين والأستراليين من الاطلاع على السيبرنت الفعلي لا بابتداع طبعة جديدة له.

بقيت المشكلة تجرجر ذيولها. إلى ما بعد أشهر ظلت بلا حل.

"حقاً نحن في مواجهة وضع سيء هنا". قال الجنرال أبي زيد لآرميتاج معبراً عن خيبة أمله ذات يوم من أيام صيف 2004، مضيفاً "عاجزون نحن عن كسب المعركة عسكرياً".

سارع آرميتاج إلى نقل الصورة إلى باول. فيما بعد، عاد باول من أحد مؤتمرات الفيديو وكان يضم الرئيس وأبي زيد.

علق باول رداً على آرميتاج: "هو لم يقل ذلك هنا، لم يبح بما قاله لك".

رد آرميتاج: "أعلم ذلك". لعل الأسوأ هو أنه كان يتابع حضور اجتماعات مجلس الأمن القومي حيث كان المدراء والرؤساء يتحدثون عن أعداد الجثث. فعدد القتلى من المتمردين كان بنداً روتينياً في التقارير. إما أن الرئيس كان يسأل عنها أو كان الجيش يبادر ذاتياً إلى إبلاغه. بدا الأمر بشعاً ومألوفاً بالنسبة إلى آرميتاج وغيره من مخضرمي فيتنام في الاجتماعات.

كان أبي زيد قد أحاط الرئيس علماً، من قبل، بوجود نحو 5000 متمرد عنيف. "قتلنا منهم، سيادة الرئيس، أعداداً هائلة هنا، إلا أنني أعلم أني قلت لك يوماً إن هناك 5000 عدو. لقد نجحنا في قتل ما يزيد على 5000 منهم غير أن عصابة كاملة منهم مازالت موجودة". وفي مناسبة أخرى قال أبي زيد إنهم كانوا قد قتلوا ثلاثة أضعاف الـ 5000.

مع اندلاع أي معركة كبيرة بالقرب من الحدود السورية كان الرئيس، التماساً لأي مؤشر على حصول تقدم ما، يسأل: "كم قتلنا؟"

ورغبة منه في إظهار حصول نوع من التقدم، كان أبي زيد يطلق الرقم بصخب.

في 2003، قبل هذه الاجتماعات بعام أو نحوه، أجريت مقابلة مع نائب رئيس هيئة الأركان المشتركة الجنرال بيتر بيس بضع مرات. ما برز خلال عدد غير قليل من الجلسات هو شجبه المؤكد لإحصاء الجثث. قال: "ما من مرة تحدثنا فيها عن رقم بعينه في هذا المكتب. ربما لأن الزبائن الذين هم مثلي من مخضرمي فيتنام يعرفون ما يحصل عندما تبدأ بالعدد. تنحرف تماماً وكلياً بأسلوب تفكير الناس، أسلوب تصرف الشعب على الأرض. ما نحن راغبون في إفهام الجمهور على الأرض هو أننا ننجز المهمة بأقل قدر من القتل، ولكن بالقيام بكل ما هو مطلوب وضروري لحماية شبابنا نحن".

بقيت أعداد الجثث ترد في التقارير وتُوظف لقياس مدى التقدم.

في آب/أغسطس 2004، عاد فرانك ملر إلى العراق، مسافراً هذه المرة مع بيس، أحد المقربين من رمسفلد والمفضلين لديه.

كان ملر يرى أن بيس كان رجلاً وضابطاً رائعاً، ولكنه لم يكن مؤهلاً ليضطلع بدور التد لرمسفلد. على امتداد أربعة أيام جال الرجلان على سائر المدن ومناطق القتال الرئيسة في العراق. في 5 آب/أغسطس، حطا رحالهما في ثكنة الفلوجة، حيث قام بيس بشَكْلِ سبعة أوسمة قلب أرجواني على صدور سبعة جرحى من المارينز في الحصر البادي لا نهائياً. ظل ملر يطرح على القادة الميدانيين، على جميع المستويات، السؤال نفسه: ما الذي أنتم بحاجة إليه؟

قادة الفرق التي تتراوح أعداد منتسبيها بين 10.000 و20.000 رجل وامرأة قالوا: نحن بحاجة إلى مترجمين. قادة الألوية المؤلفة من بضعة آلاف قالوا: مترجمين. قادة الكتائب المؤلفة من 600 إلى 800 جندي، قالوا: مترجمين. ثمة فرق ومفارز صغيرة كانت تُكلف بمهمات تفتيش بيوت، إغلاق مناطق، طرق أبواب واقتحامها عنوةً دون متوجمين قادرين على التكلم باللغة العربية.

لم يكن النقص مقبولاً أو معقولاً بنظر ملر. إذا لم يكن الجنود الأمريكيون والراقيون قادرين على التواصل بالكلام، فإن من شأن احتمالات عدم التفاهم أن تكون مضاعفة ومركبة. ثمة إخفاقات تواصل تاريخية كانت تحصل يومياً. أحياناً كانت الدوريت تتعرض لخطر الضياع الكامل. لا شيء كان من شأنه أن يعزز صورة الأسريكيين بوصفهم قوة احتلال امبريالية أكثر من فرق جنود مدججين بالأسلحة اعمروا الخوذ وارتدوا السترات الواقية تجوب البلاد وتتبختر، عاجزة عن التواصل، وغير مهتمة، على ما يبدو، بمعرفة ما يراه العراقيون، يشعرون به أو يريدونه.

تذكر ملر من جديد قيمة الحقيقة الميدانية. بعد عودتهما إلى واشنطن، راح يراقب بيس، الذي تلقى الرسالة أيضاً، متوقعاً منه أن يبدأ دحرجة الكرة. لم يحصل شيء. اتصل ملر باللفتنانت جنرال والتر ال "سكيب" شارب، مدير الخطط الاستراتيجية والعياسية، الـ جي - 5 في الأركان المشتركة.

بادره ملر قائلاً: "أنتم بحاجة إلى مترجمين؛ نعم مترجمين".

رد عليه شارب: "لا، لسنا بحاجة إلى مترجمين. نحن بحاجة إلى محققين". كان اهتمامه متركزاً على اختصاصيي لغة أكثر مهارة مؤهلين ليس للتحدث بالعربية وحسب بل ومتقنين لفن سحب المعلومات الاستخباراتية من أفواه العراقيين المعتقلين.

وافقه ملر: "صحيح، أنتم بحاجة إلى محققين". غير أنه أضاف أن العملية كانت تستدعي أيضاً وجود مترجمين أكثر أساسية.

وعده شارب: "سأفاتح بعض عناصري بالموضوع". أفاد لاحقاً بأنه قام بالتدقيق مع بعض قادة الألوية، وقال: "نحن على ما يرام".

"يا لهول لعنة السماء! أنتم لستم على ما يرام". قال ملر.

أخيراً قامت هيئة الأركان المشتركة بإيفاد بريغادير جنرال إلى الموصل للتحقق من الأمر قبل ترشيحه لتولي منصب القائد رقم 2 للجيش الأمريكي في المنطقة.

فيما بعد بادر الجنرال إلى مفاتحة ملر قائلاً: "مدين لك أنا باعتذار".

"عظيم. لماذا؟"

"نحن بحاجة إلى مترجمين".

تساءل ملر عن السبب الذي جعل بيروقراطياً مدنياً مثله في جهاز العاملين لدى مجلس الأمن القومي مضطراً إلى تنبيه الجيش إلى حقيقة أنه بحاجة إلى مترجمين على جميع المستويات. ثمة أطفال كانوا يموتون بسبب النقص. أثار القضية مع قائد وحدات المارينز ونائب رئيس هيئة أركان الجيش، وأخيراً مع رايس.

قالت رايس: "أصلح الأمر!" تعين على ملر أن يمارس صلاحياته، على الرغم من أنه كان يتساءل عن حقيقة هذه الصلاحيات بالتحديد الدقيق. كان توفير المترجمين أمراً بالغ الصعوبة؛ من شأن تدريب أعداد من المترجمين الأكفاء أن يستغرق سنوت؛ نعم سنوات لم تكن متاحة. قرر أن الحل تمثل بتكليف وزارة الخارجية بعقد مسابقة دولية لانتقاء مترجمين. ينبغي للأمر ألا يتم في العراق. يمكنهم الذهاب إلى الجزائر أو المغرب. لم يكن المترجمون بحاجة إلى إجازات أو شهادات أمنية؛ كان يكفي أن يكونوا متقنين للغتين الإنجليزية والعربية. تصور ملر أن من الممكن إرسالهم إلى العراق، حجزهم ليلاً في مجمع آمن، تجريدهم من هواتفهم الخليوية. من الممكن استخدامهم مدة ستة أشهر ثم إعادتهم إلى أوطانهم مزودين بمكافآت دسمة. من شأن المال أن يتكلم.

بعد أشهر، لم تكن المسألة قد حُلت. باعتقاد ملر كان الوضع الآن أسوأ من فضيحة. غارقاً في بحر من اليأس، قال فيما بعد: "أعتقد أننا أفسدنا الأمر". وبعد فترة زمنية أخرى، مع حلول نهاية عام 2005، تحول ضمير الجمع إلى ضمير المفرد، وصار ملر يلقي اللوم على نفسه قائلاً: "أخفقتُ في إنجاز المهمة".

۞ ۞ ۞

في آب/أغسطس 2004، قرر رجل الدين الشيعي الكفاحي الشاب مقتدى الصدر تحدي الولايات المتحدة. كان آية الله العظمى السيستاني، مركز القوة الشيعي الفعلي في العراق، بلندن لتلقي العلاج الطبي، وكان مقتدى قد أقحم أتباعه تسللاً في قلب مدينة النجف، كما في أقدس المزارات الشيعية لاحقاً، في مسجد الإمام علي.

ظل مقتدى مصدر أعمال شغب على الدوام بالنسبة إلى الولايات المتحدة، ونحو 4000 من جنود المارينز والجيش حاصروا المنطقة وراحوا يتقدمون باتجاه مزار الإمام علي أكثر فأكثر.

قدة عرب ومسلمون اتصلوا بالبيت الأبيض وبعثوا برسائل قائلين ما معناه: "افعلوا ما شئتم، ولكن لا تهاجموا مزار مسجد الإمام علي". أدركت رايس أن من شأن أي هجوم على المزار أن يثير مشكلة مع الشيعة ستحرم الولايات المتحدة من القدرة على إيجاد عراق موحد. أصيبتْ بالذعر الشديد. إذا حصل خطأ في التعامل مع المسألة فإن احتمال الفوز لن يكون مضموناً.

سيل من الأوامر الصادرة عن واشنطن – عن البيت الأبيض، عن البنتاغون وعن وزارة الخارجية – تدفق على بغداد. كان نغروبونتي في إجازة، فعكف الجنرال كيسي وجيم جفري على مراوغة الرسائل الملتبسة التي لم تكن سوى تنويعات على لحن "تعاملوا مع الزيون،" "حذار استفزاز الشيعة،" "تدبروا الأمر – تلك هي علة وجود السفارات والجنرالات".

كان جفري يلتقي رئيس الوزراء المؤقت العلاوي كل ليلة. لم يكن العلاوي العلماني غير المغرم بـ "العمائم" راغباً في عودة السيستاني إلى البلاد. أراد العلاوي حل المشكلة بمعزل عن السيستاني حتى ولو اقتضى الأمر قصف المسجد. قال العلاوي لبلاكول: "علينا أن نسحقهم".

بإيعاز من واشنطن قال جفري للعلاوي: "لا تستطيع أن تفعل ذلك". لابد من السماح للسيستاني زعيم ملايين الشيعة العراقيين بالعودة إلى العراق. نقطة. رجاءً، مفهوم؟

أذعن العلاوي. سكرتيره الأمني، قاسم داود الذي كان على علاقات أفضل مع السيستاني بادر إلى لقاء آية الله لدى عودة الأخير عبر ميناء البصرة في الجنوب.

أمر كيسي جل فرق القناصة الأمريكية - من القوات الخاصة وضباط الاحتياط في البحرية - في العراق بالتوجه إلى النجف. راح هؤلاء يحصدون العشرات من رجال مقتدى المتمركزين في مجمع شبيه بالمدينة حول المسجد.

"أين هو جون نغروبونتي بحق الجحيم؟" راح يسأل جفري الذي أدرك احتمال عودة الأمور إلى نقطة الصفر من جديد. أما نغروبونتي الذي كان يمضي إجازة في بحر إيجة فكان يحاول العودة. أرسل العلاوي إنذاراً ناعماً إلى مقتدى فَسَّره جفري من حيث الجوهر على أنه كان يقول: "هم يربحون، نحن نخسر". لم تفد عصبيته إلا في مضاعفة غضبه.

وبعد ذلك أمر السيستاني بالزحف إلى النجف ومحاصرة مرقد الإمام علي.

"ما الذي تفعلونه هناك؟" كان السؤال المتكرر الآتي من كل من البيت الأبيض، البنتاغون ووزارة الخارجية.

"نحاول أن نمارس نوعاً من السلطة في زحمة الأحداث" جاء جواب جفري الذي أضاف "ونعتقد أن ذلك سيكون على ما يرام. عليكم أن تثقوا بهؤلاء الشباب".

كانت الثقة صعبة في واشنطن.

زحف الآلاف سلمياً إلى النجف. ألزم السيستاني مقتدى بالمجيء والتفاوض، ما لبثا أن اتفقا على الانسحاب من مرقد الإمام علي. تعين على جفري وكيسي أن يعدا فقط بعدم قتل رجال مقتدى المنسحبين من المزار. بدا الأمر كما لو كان انتصاراً لجفري الذي لمس نفوذ السيستاني مرة أخرى. علق جفري نصف مازح: "سأبدو ناجحاً طالما بقائي قادراً على اعتماد سياسات تبقينا قريبين من السيستاني". قام الرئيس بالتقاط الرسالة. بات السؤال المتكرر متمثلاً بـ "ما علاقة السيستاني بالأمر؟ علينا أن نكتشف الحقيقة. هيا اذهب واكتشف".

انسحب مقتدى مؤقتاً إلى قاعدة نفوذه بمدينة الصدر التي هي الزاوية الشمالية الشرقية لبغداد حيث يعيش مليونا نسمة.

مدعية عامة اتحادية سابقة من نيويورك، تبلغ 42 عاماً من العمر، تدعى فرانسيس فراغوس تاونسند، جرى تعيينها رئيسة لمجلس الأمن الوطني منتصف سنة 2004، فباتت مستشارة بوش الرئيسة في البيت الأبيض حول مسائل مكافحة الإرهاب. دأبت على عقد عدد من الاجتماعات لكبار المسؤولين لمقاربة مختلف الاقتراحات الحساسة ذات العلاقة بالحرب على الإرهاب. درج رمسفلد على إيفاد شخص من الدرجة الثانية أو الثالثة. وتاونسند المخضرمة المستندة إلى خبرة 13 سنة خدمة في وزارة العدل كانت قد تعلمت أن البقاء والاستمرار كانا متوقفين على إتقان تجنب الصراعات البيروقراطية غير الضرورية. قررت عدم الاعتراض، وواصلت عقد الاجتماعات. بعد نحو ثلاثة أسابيع من توليها منصبها الجديد، كان ثمة لقاء بين المجلس والرئيس، بادر فيه رمسفلد إلى شن هجوم عليها. قال الوزير إن جميع هذه القرارات كانت تُتخذ دون مشورته. وزعم أنه لم يتلق أي دعوة إلى الاجتماعات. قامت تاونسند بتصويب مزاعمه مؤكدةً أن الدعوات كانت تصل إلى الشخص المكلف بتسلم مثل هذه الدعوات في مكتبه، موردة الاسم وأرقام إشعارات الاستلام.

بعيد ذلك تلقت تاونسند دعوة إلى حفلة كوكتيل ببيت رمسفلد. سألت رايس عما إذا كانت مدعوة؛ نفت رايس أن تكون. تبادلت المرأتان ضحكة صادقة بشأن ضرورة منازلة رمسفلد ندياً. على قدم المساواة، العين بالعين والسن بالسن.

كانت تاونسند بصدد قضية مكافحة إرهاب أكثر حساسية. على امتداد السنين كانت قد عكف على اجتراح سلسلة من الاتفاقات مع مجموعة من مؤسسات الاتصالات البعيدة والمال للوصول إلى وثائق هاتفية، إلكترونية ومالية معينة ذات علاقة بعمليات الاستخبارات "القذرة". قام تت شخصياً باتخاذ جل الترتيبات مع مختلف المدراء التنفيذيين للشركات. كانت تلك ترتيبات بالغة السرية، من بين أكثرها حساسية، وكثيرة الاستناد إلى تفاهمات غير رسمية. كان تت أستاذاً أجاد هذه اللعبة لابساً ثوب الوطنية وطالباً من المدراء التنفيذيين أن يمدوا يد المساعدة في قضايا ذات علاقة بالأمن القومي.

بعد 9/11، مع تزايد انخراط الاف بي آي (مكتب التحقيقات الاتحادي) في عمليات مكافحة الإرهاب بالولايات المتحدة، كثيراً ما صار عملاء الوكالة يطرقون أبواب الشركات ومعهم مذكرات قضائية تخولهم الحصول على سجلات مشابهة عن الوثائق

الهاتفية، الإلكترونية والمالية. يضاف إلى ذلك أن وزارة أمن الوطن الجديدة، التي جرى استحداثها أواخر 2002 لجمع 22 وكالة أو إدارة اتحادية مختلفة اختلاف الجمارك عن حرس الشواطئ في جبهة عمل موحدة.

راح المدراء التنفيذيون ينبهون إلى أنهم مستعدون لتلبية الطلب مرة واحدة لا ثلاث مرات. بدت مذكرات الاف بي آي أقوى من المحاولات الأخرى.

كان الصراع الرئيس بين الاف بي آي والسي آي ايه (وكالة الاستخبارات المركزية). إن جزءاً من الإجراء الذي كان تنت قد اتخذه أدى إلى إشراك قسم الموارد القومية في السي آي ايه، الذي كان يضم عناصر موزعين في أكثر من عشر مدن أمريكية رئيسة مما مكّن السي آي ايه من مقابلة وتجنيد أجانب زائرين في الولايات المتحدة. ومعشر الان آر، كما كان هؤلاء العناصر يُعرفون، كانوا منخرطين، على ما يبدو، في إنحاز ترتيبات تمكّن أجهزة استخباراتية أخرى، مثل وكالة الأمن القومي، من الوصول إلى المعلومات التي كان مدراء الشركات التنفيذيون قد وعدوا بتقديمها.

بدا الصراع بالغ الحدة إلى درجة أن تاونسند بادرت إلى استدعاء كل من مدير الإف بي آي روبر مويلر ومدير السي آي ايه بالوكالة جون ماكلوخلين إلى البيت الأبيض وطلبت منهما حل النزاعات. ثم صارت تجتمع بهما من حين لآخر إلى أن قام كل منهما بتعيين أحد كبار الموظفين للتنسيق بما يضمن عدم إغراق الشركات بوابل من الطلبات المكررة.

أثار الأمر عدداً من المسائل الحقوقية الجدية. جرى منع وكالة الاستخبارات المركزية، بالقانون، من جمع المعلومات الاستخباراتية في الولايات المتحدة. موظف تحدثتُ معه قال إن الترتيبات التي اجترحها تنت مكّنت فقط من الوصول إلى بتوك المعلومات السلبية من مؤسسات الاتصالات البعيدة والمال الأمريكية. أما جمع معلومات محددة عن أفراد معينين فقد ظل يتطلب إما مذكرات، حكم قضائي صادر بموجب قانون مراقبة الاستخبارات الأجنبية (الاف آي اس ايه)، أو عمليات منفذة وفق الأمر الإداري الملتبس والإشكالي الموقع من الرئيس بوش بعد 9/11 والمعروف باسم برنامج مراقبة الإرهاب (التي اس بي) الذي يمكّن وكالة الأمن القومي من الدخول على الاتصالات الهاتفية والإلكترونية بين نشطاء القاعدة المشبوهين وأتباعهم.

غير أن ترتيبات تنت بقيت، مع ذلك، جزءاً من عالم جمع المعلومات الاستخباراتية المظلم في القرن الحادي والعشرين الذي أثار عدداً من الأسئلة الجدية حول الحريات

المدنية كما سلط الضوء على حقيقة أن القوانين لم تواكب التقدم الحاصل على الصعيد التكنولوجي.

انخرط باول وآرميتاج في موجة تعليقات سرية متمادية حول بوش، تشيني والبيت الأبيض وما كان يجري بالفعل. كان الرجلان، كلاهما، يريدان لبوش أن ينجح، ويؤمنان بضرورة كسب الحرب في العراق لمصلحة الاستقرار في الشرق الأوسط. فأي انسحاب أميركي متسرع كان من شأنه ألا يخلّف سوى الفوضى. ولكن ماذا عن تصويب الخطة؟ كان يسألان. ألا يتعين علينا أن نتحلى بقدرٍ أكبر من الواقعية؟

ذات يوم سأل آرميتاج باول: "ألا تمر بهم لحظات شك ذاتي؟" ألم يتساءل بوش في أعماق روحه عما إذا كان هذا كله صحيحاً؟

أجاب باول بأن لديه السؤال نفسه. ثمة شك ذاتي على الدوام. إن المرء يعيش عليه، يسدد خطاه من منطلقه. إذا لم يكن المرء مسكوناً بالشك الذاتي، قال باول، إذا لم ينهض في الصباح من النوم وهو يتساءل عما إذا كان سيقوم بعمل فيه ما يكفي من الخير أو إذا كان لا يزال قادراً على الإنجاز، فإنه لا يساوي شيئاً ذا قيمة.

"نعم لا يساوي مثقال ذرة" قال آرميتاج.

لم يسبق لأدنى قدر من الشك أن وجد طريقه إلى خطاب الرئيس البلاغي العام. وحسب تجربة باول وآرميتاج، لم يكن الرجل مختلفاً في خطابه الخاص وراء الكواليس.

قال باول إن بوش وتشيني لم يكونا يجرؤان على التعبير عن أي تحفظات. وافقه آرميتاج قائلاً: "لا يستطيعان أن يشكا بصواب الخطة والسياسة لأن من شأن مثل هذا الشك أن يثير طوفاناً من الأسئلة في عقليهما".

إلا أن الرئيس هو المركز. أحس آرميتاج بالارتباك والحيرة. سأل الوزير: "هل فكر بالأمر ملياً؟ ما يقوله الرئيس يعني أن علينا أن نواصل الضغط تكريماً لذكرى أولئك الذين سقطوا. طريقة أخرى للقول بأن علينا أن نرسل المزيد من الناس إلى الموت تكريماً لذكرى أولئك الذين سبق لهم أن سقطوا".

لقد استكشفتُ قضية الشك مع بوش في عدد من المقابلات. ففي كانون الأول/ديسمبر 2001، بعد 9/11 بثلاثة أشهر وبعد بضعة أسابيع من النجاح الظاهر للجزء الأول من الحرب في أفغانستان" بادر الرئيس تطوعاً، عند انتهاء إحدى

المقابلات، إلى إطلاق التصريح التالي: "أعرف أن من الصعب عليك أنت أن تصدق، غير أنني لم أعانِ بأي قدرٍ من الشك حول ما نحن عاكفون على فعله. لم يراودني أي شك حول ما نحن منخرطون في عمله... ليس ثمة أي ذرة شك في عقلي حول ضرورة التسليم الكامل بأن ما نفعله هو الصواب".

كانت رايس، ومعها آخرون، قد قالت إن الشك عنصر جوهري من عناصر صنع القرار لأنه يفرض نوعاً من المعاينة المتأنية وتجديد التكيف. حاولتُ الضغط على بوش في هذا الموضوع مرة أخرى في مقابلة أجريتها معه في آب/أغسطس 2002 بمزرعته في كروفورد. كان العنوان هو الحرب الأفغانية، غير أنه كان، بطبيعة الحال، منخرطاً بقوة في التخطيط السري للحرب على العراق، تلك الحرب التي كان سيأمر بشنها بعد سبعة أشهر.

قال بوش: "بادئ ذي بدء، يتعين على أي رئيس أن يكون الكِلْسَ في العمود الفقري. إذا ضعُفت فإن الفريق كله يضعف. إذا راودني الشك، فأستطيع أن أؤكد لك أن التك سيعم. إذا تضاءلت ثقتي بقدرتنا، فإن ذلك سيحدث أثباجاً من الريبة في المنظمة كلها. أعني، من الجوهري أن نكون واثقين ومصممين وموحدين".

"لا أريد مِنْ حولي أناساً مفتقرين إلى الثبات... وإذا كان ثمة نوع من فرك الأيدي قنوطاً حين تكون الظروف صعبة، فأنا لا أحب ذلك".

الأيام الأولى الصعبة حقاً في الحرب الأفغانية لم تدم إلا فترة قصيرة. تلك كانت الفترة الزمنية القصيرة الفاصلة بين النقاش العام لاحتمال الغرق في مستنقع والانهيار السريع لنظام الطالبان. أما في العراق فإن الأزمنة الصعبة - حوادث العنف، القتل، حالة اللايقين، وسائر الدلائل المشيرة إلى وجود مستنقع حقيقي - قد دامت سنواته ومازالت متواصلة.

في اللحظات القليلة التي توفر فيها لرايس بعض الوقت للقراءة، قَرَأَتْ عن الآباء المؤسسين لتتذكر أن الولايات المتحدة الأمريكية كان يجب عليها، بالمطلق، ألا تظهر إلى الوجود. تأثرتْ، على نحوٍ خاص بكتاب 1776 تأليف ديفد ماكلوغ، عن أكثر أيام الثورة الأمريكية حلكة وظلاماً. كتب الجنرال جورج واشنطن رسالة خاصة إلى أخيه تأمل فيها التناقض الصارخ بين سلوكه العام ومعرفة طبيعة الظروف الشاقة. كتب واشنطن يقول: "أعداد كبيرة من مصاعبي وأسباب شقائي كانت من طبيعة بالغة الاستثنائية إلى درجة أنني اضطررت لإخفائها عن أصدقائي، بل وحتى عن جيشي في الحقيقة، كي

أتمكن من إخفائها عن العدو، وصولاً إلى إخضاع سلوكي لتفسيرات هي لغير صالح شخصيتي".

زعمت رايس، على مسامع عدد من الزملاء، أنهما، هي والرئيس، لم يكونا شاعرين بأي ضيق مواز. "يا له من منزلق صعب!" قالت رايس، إلا أن بوش كان قد أبلغها: "أرى الطريق الموصلة إلى العراق".

كثيراً ما كانت التشبيهات والصور المستوحاة من لعبة كرة القدم في دائرتها الداخلية الضيقة. في إحدى المرات قالت: "ستتعرض للطرد من الملعب بين الحين والآخر. وقد تتعثر وتقع في الحيرة أحياناً. غير أن الأمر ليس كما لو كان الجميع يشعرون بأننا أقل بـ 25 نقطة دون أي خلل مع فترة دقيقة و34 ثانية باقية".

غير أن واقع العراق لم يكن إلا تجسيداً للعنف المتصاعد. فالهجمات الصادرة عن العدو ضد التحالف والعراقيين كانت قد بلغت نحو 200 في حزيران/يونيو 2003. أما مع مجيء صيف 2004 فقد بلغت نحو 1750 في الشهر الواحد، زيادة بمعدل تسعة أضعاف تقريباً، وفقاً لخلاصات سرية مصنفة مرفوعة إلى كبار المسؤولين. صحيح أن هذه المعلومات لم تكن، بالضرورة، محجوبة عن الجمهور، غير أن أحداً لم يكن يؤكدها ويبرزها، كما أن الحديث عنها لم يكن منتظماً. والتقارير الإخبارية على شاشات التلفزيون وصفحات الجرائد بقيت ميالة إلى التركيز على الهجمات الكبرى، المثيرة والقاتلة للعشرات غير أن الحقيقة المزعجة تمثلت بأن العراق كان قد أضحى بلداً بات فيه الطبيعي المألوف يعني 60 هجوماً في اليوم الواحد.

# 30

بعيد استقالة تنت اتصل آندي كارد بآرميتاج ليستطلع ما إذا كان الأخير مهتماً بتولي إدارة وكالة الاستخبارات المركزية.

جاء رد آرميتاج نفياً مؤكداً.

"خاب أملنا. هل أستطيع سؤالك عن السبب؟"

أجاب آرميتاج قائلاً إنه قادر على بيان السبب ولكنه يفضل ألا يفعل لأن من شأن ذلك أن يجرح مشاعر كارد.

كان كارد يعلم أن مشكلة آرميتاج كانت متمثلة بتشيني ورمسفلد. غير أنه آثر مع ذلك أن يستطلع من باول ما إذا كانت ثمة طريقة ما لإقناع آرميتاج.

رد عليه باول: "يمكنك أن تطلب منه ثانية، ولكنه ليس من أولئك الذين يتذبذبون". فكلمة "لا" صادرة عن آرميتاج هي "لا" حقيقية. "قناعتي الشخصية هي أنه لن يفعل".

برأي آرميتاج كان ثاني أفضل جواب يمكن لأي شخص أن يزودك به من قاموس اللغة الإنجليزية هو "لا" بعد "نعم". إنه جواب حاسم. من شأنه أن يمكّنك من السير قدماً. ففي واشنطن يكون المرء، حسب شعوره، مصراً على مجرد إغواء القدر إذا بالغت في إطالة البقاء. كانت ساعة الرحيل هي ساعة يكون المرء في أوج لعبته، ساعة يكون الجميع يقولون: "أنت هو الرجل، يا رجل". من هذا المنطلق فإنه وباول كانا قد بالغا في إطالة البقاء.

أدرك آرميتاج أن عقوبة الاختلاف في بيت أبيض بوش لم تكن إلا اتهاماً مبطناً أو معلناً صراحةً بأنك لست من الفريق. إذا أقدم هو أو باول على قول إن أمراً قد يكون أصعب مما يبدو، فإن رايس أو هادلي يسارعان بالحكم عليهما بأنهما ليسا من الفريق. وذا قالا، كما فعلا: "إن العراقيين قد لا يكونون راضين عن احتلال بلدهم مدة طويلة جداً،" فقد كان من شأن ذلك أن يعني أننا لم نكن من الفريق.

كان باول يحصل على نحو 20 دقيقة من وقت بوش أسبوعياً. نظرياً كان المفروض أن يلتقيا وحدهما، ولكن تشيني كان موجوداً على الدوام. لم يكن نائب الرئيس ينبس ببنت شفة، ولكن تشيني، كما اقتنع باول لاحقاً، كان يزود بوش بصيغة أخرى من صيغ "إنه ليس من الفريق".

أدرك باول وآرميتاج أن البيت الأبيض كان يرى وزارة الخارجية ودبلوماسييها عوامل تهدئة. لم يكن تشيني، رمسفلد، ورايس إلى حدٍّ ما، مستعدين لتمكين الخارجية من الانخراط في العمل الدبلوماسي لأن مثل هذا العمل كان يُعد ضعفاً.

مرة قال آرميتاج لباول: "ليست فكرتهم عن الدبلوماسية سوى أن يقال: "اسمع يا داعر، افعل ما نريده!"".

ومع ذلك لم يكن أمام الولايات المتحدة خيار آخر سوى الانخراط في العمل الدبلوماسي، لأن العراق كان قد استهلك قدراً مفرطاً من الاهتمام، المال، القوة العسكرية والجهد السياسي - ماصّاً الأوكسجين من كل شيء آخر، كما كان باول قد حذر بوش قبل الحرب بستة أشهر. كادت الدبلوماسية أن تكون الأداة الوحيدة الباقية للتعامل، مثلاً، مع كوريا الشمالية وإيران.

۞ ۞ ۞

في 11 آب/أغسطس رشح بوش عضو الكونغرس الفلوريدي لثمان دورات بورتر غوس البالغ 65 سنة من العمر، رئيس لجنة الاستخبارات في المجلس، مديراً جديداً لوكالة الاستخبارات المركزية. صادفه آرميتاج بعيد الترشيح. "يا لبورتر المسكين!" كان آرميتاج يقول لنفسه.

"ما الذي يفعله شخص ظريف مثلك في مكان كهذا؟" قال آرميتاج.

"ظننت أنك كنت ستتولى هذا المنصب وكنتُ أنا قد تجنبته" أجاب غوس.

"مستحيل" قال آرميتاج "طان بقائي في الداخل. إياك يا بورتر أن تتولى منصباً لا تعرف هوية من سيكون رئيسك في العمل".

بموجب التشريع الاستخباراتي الجديد، كان مدير الاستخبارات القومي سيحتل مرتبة أعلى من مرتبة مدير وكالة الاستخبارات المركزية. كان غوس وخلفاؤه سيرفعون تقاريرهم إلى مدير الاستخبارات القومية - بصرف النظر عن هويته.

أدلى ديفد كي بشهادته أمام الكونغرس في 18 آب/أغسطس حول المعلومات الاستخباراتية عن أسلحة الدمار الشامل العراقية. أفاد بأن قدراً كبيراً من اللوم والنقد القابلين للتوجيه يميناً ويساراً كان متوفراً، غير أن أكثر سهام نقده حدة كانت مصوَّبة باتجاه مجلس الأمن القومي ورايس ضمناً.

قال كي في شهادته: "إن الكلب الذي أخفق في أن ينبح وينبه في قضية برنامج أسلحة الدمار الشامل العراقي هو مجلس الأمن القومي، حسب ما أرى بوضوح".

في اليوم التالي كانت شهادة كي في الجرائد. لم يكن قد انتهى من قراءة الخبر حين جاءه اتصال هاتفي من روبرت جوزف، موظف مجلس الأمن القومي المسؤول عن ملف انتشار الأسلحة الذي كان يعمل عند رايس، داعياً إياه إلى الغداء. كان كي وجوزف يعرفان بعضهما منذ 15 سنة.

ما إن جلسا حتى أطلق جوزف عبارة: "هذا الحديث لم يجر بالمطلق". كان عنيفاً في توبيخ كي. كيف استطاع الأخير أن يدلي بمثل تلك الشهادة بحق رايس؟ كانت الأخيرة مستشارة الأمن القومي الأفضل في تاريخ الولايات المتحدة كله.

رد كي قائلاً: "حسناً، كان بوسعها أن تتوقف عن محاولة التحلي بصفة أفضل أصدقاء الرئيس لتكون المستشارة الأفضل وتدرك أن هذه هي وظيفتها". حين أصر تنت على أن قصة أسلحة الدمار الشامل لم تكن إلا "خبطة عشواء" كان عليها أن تتابع المسألة باندفاع، مطالبة بمعاينة كاملة لكل خيط من خيوط أدلة "الخبطة العشواء" حتى الخيط الأخير.

أصر جوزف على عناده. كانت رايس قد فعلت ما استطاعته. كانت الأسرة الاستخباراتية ووكالة الاستخبارات المركزية قد تسببتا في تضليلها، برأي جوزف.

استنتج كي أن جوزف لم يأت إلا بأمر من رايس، ولم يكن ثمة أي جدوى من إطلاق النار على الرسول أو حامل الرسالة. أدهشه أن تكون على هذه الدرجة من الحساسية.

لم يتزحزح كي عن موقفه، قال: "ربما كانت مستشارة الأمن القومي الأكثر سوءاً في العصر الحديث منذ استحداث الوظيفة".

كانت ميغان أوسليفان، الدكتورة الشابة خريجة أكسفورد التي أُبعدت مؤقتاً عن فريق جي غارنر بإلحاح من مكتب نائب الرئيس، قد أثبتت أنها من الناجين في كل من

بغداد وواشنطن. فبعد تجربتها الصاعدة الهابطة في فريق غارنر، كانت قد نجحت في الوصول إلى العراق. كانت مع كل من سكوت كاربنتر وروسان مارتينيز من أقرب مساعدي بريمر، ومن العدد القليل جداً من الموظفين الذين عملوا مع الأخير في العراق على امتداد تاريخ سلطة التحالف المؤقتة كله. وبعد نقل السيادة عادت إلى البيت الأبيض مع بلاكول لتعمل في جهاز مجلس الأمن القومي.

ما إن وصلت حتى قالت لملر: "يفترض، على ما يبدو لي، إذن، أن أمسك بالملف العراقي كله ذات يوم".

"ربما" قال ملر، غاضباً قليلاً "غير أنني مازلت هنا".

بدأت الشكاوي تنهال على ملر من بعض معارفه في البنتاغون، مصادر كان قد رعاها خلال ثلاثة عقود في الحكومة. بادر إلى التصدي لها. كانت وزارة الدفاع ملاذه وساحته. قال ملر: "أبقى بعيداً عن عملك، وتبقين أنت بعيدة عن عملي". سرعان ما اكتشف أن أوسليفان كانت ذكية جداً، غير أنها لم تكن تعرف إلا القليل عن الأمن، إعادة البناء أو كيفية خوض الجيش للحرب. كان يرى أنها شخصية تخطيط أخرى. مع صعود الميليشيات العراقية، تلك الجماعات الطائفية المسلحة الخاصة، طرحت فكرة: "فلنسارع إلى إدخال الميليشيات في الجيش العراقي".

رد عليها ملر: "تلك فكرة بالغة السوء حقاً يا ميغان". فالميليشيات غير قابلة للضبط. إنها تعمل لصالح قادة أو رجال دين متعصبين مثل مقتدى الصدر.

ليلياً، كان ملر وأوسليفان يؤلفان تقرير بوش عن الوضع في العراق. كان التقرير قصيراً - صفحة واحدة أو اثنتان ربما، ولا أكثر من أربع صفحات أبداً - مسلطاً الضوء على عددٍ من التطورات المفتاحية على صعيد سياسة العراق، إعادة البناء وقضايا الجيش، ومتضمناً باستمرار أعداد الإصابات الأحدث. كانت لأوسليفان علاقات شخصية مع العديد من القادة العراقيين بعد عملها الطويل مع بريمر، وكانت تجري محادثات هاتفية مطولة معهم. لاحظ ملر أنها كانت تُقحم ما كانت تسمعه منهم في المذكرة الرئاسية.

هؤلاء الشيوخ المسنون الدهاة يجيدون استغلالها ويوصلون رسائلهم إلى الرئيس مباشرة، برأي ملر. قرر الأخير تكيس راية الجزاء ولاذ بهادلي الذي بدا متفهماً

لهواجسه. إنها شديدة الذكاء ولكنها تعاني من بعض الهنات ذات الشأن وتحتاج إلى الضبط، وافق هادلي الذي قال إنه كان سيفكر بطريقة تمكّنه من تعيين أحدهم رئيساً لها، لضمان بقائها على الخط. غير أن ذلك لم يحصل. سرعان ما كانت رئيسة نفسها وكبيرة أركان جهاز العاملين في المكتب العراقي بمجلس الأمن القومي. أصيب ملر بالدهشة.

۞ ۞ ۞

في آب/أغسطس 2004 زاد عدد الهجمات المعادية 1000 هجوم ليقفز إلى 3000 حسب تقارير سرية مصنفة. كانت رايس تكره الاستيقاظ صباحاً وقراءة الصحف. كانت سلسلة من القصص والمقالات البائسة والانتخابات الرئاسية الأمريكية على مسافة أشهر قليلة فقط.

قالت لجهاز العاملين لديها: "أشعر كما لو كنت مثل شخصية العدّاء الصغير في الطريق متعلقة بأحد الأغصان وقدماي الصغيرتان تلفان شريطاً من القصص الإخبارية المتدفقة والمنقضة على الغصن".

وائل أيار/مايو دعا مدير اتصالات البيت الأبيض دان بارتلت إلى اجتماع خبراء من الوزارات، الإدارات والوكالات المختلفة للنظر في ما يمكن عمله لتحسين صورة العراق.

قترح البعض أن يبادر الرئيس إلى الاعتراف الحذر والمدروس ببعض الأخطاء في العراق، موحياً بأن الاعتراف بالخطأ إن هو إلى أمر إنساني ودليل قوة.

"لا" قال بارتلت، مغلقاً الباب، مبيناً بوضوح أن الرئيس لم يكن مستعداً للكلام عن أي أخطاء.

سأل أحد الجنرالات من الحضور: "هل تريده أن يُلهم أو أن يُعلم؟"

"الأمرين كليهما" قال بارتلت.

"قد لا يستطيع المرء أن يجمع بينهما" قال الجنرال. فإعلام الناس غالباً ما يكون باعثاً على الملل، في حين يكون التبشير برسالة خطابياً أكثر الأحيان وغير مستند إلى الحقائق.

"شكراً" قال بارتلت.

لم يكن بوش ملزماً بتعديل صيغة رسالته. على الرغم من أنها كانت حربه، فإن أصولت الاتصالات بقيت متركزة على خصمه المرشح الديمقراطي السناتور جون كري،

فيما يخص خدمته في فيتنام قائد زورق سريع في البحرية وتصويته في مجلس الشيوخ مؤيداً للحرب مرةً ومعارضاً تخصيص مبلغ 87 ملياراً من الدولارات لهذه الحرب مرة أخرى.

لم يكن الرئيس مضطراً للإنهام أو الإعلام. كان قادراً على الاختباء في الضباب الذي أحدثه إخفاق كري في إدارة رسالته. فهذا الأخير السابح في بحار الماضي عاكفاً على الدفاع عن خدماته في فيتنام ومجلس الشيوخ، لم يبادر، أبداً، إلى شرح الطريقة التي كان سيعتمدها في توظيف سلطة الرئاسة. في حين أن بوش كان قد أوضح ذلك بجلاء. قام بتوظيف السلطة للذهاب إلى الحرب، ولم يكن مستعداً للتراجع.

جاء نيوت غنغريتش إلى البيت الأبيض أواخر خريف 2004 للتحدث مع جهز مجلس الأمن القومي حول العراق. أطلق شكواه المكرورة رشاً وبكل ثقة مسلّطاً الضوء على الأخطاء الحاصلة المتمثلة بافتقار المدراء إلى المرونة؛ بإخفاقنا في معالجة الأسباب العميقة لهواجس الناس؛ بعدم نجاحنا في التوغل إلى قلب الكتل السكانية المحلية؛ وبعدم وجود أعداد كافية من المترجمين.

نعم المترجمين، رأى فرانك ملر. مشكلة وردت مرة أخرى.

وبعد اللقاء مع الجهاز توجه غنغريتش إلى ملر قائلاً: "ألم تكن مهتماً، أم أنك كنت تعرف كل الذي قلته؟ عادةً حين أقول هذه الأشياء يفاجأ الناس ويردون".

"لا" قال ملر. "قمت بزيارتين إلى هناك. أنا عاكف على دراسة الأمر منذ ثمانية عشر شهراً. أنت لا تقول لي أي شيء لا اعرفه".

بدأ كارد يتلقى تقارير تفيد بأن الأمور لم تكن على ما يرام في لانغلي تحت قيادة بورتر غوس. فالأخير كان يبالغ في الالتزام بأحد البرامج البرلمانية - مغادراً واشنطن مساء الخميس ليعود صباح الاثنين. كان غوس قد تولى رئاسة لجنة الاستخبارات البرلمانية مدة سبع سنوات، وعين مدير جهاز العاملين عنده في اللجنة، بات موري، رئيساً جديداً لجهاز العاملين في وكالة الاستخبارات المركزية. راح موري هذا يحتك بعدد كبير من ذوي الخبرة في الوكالة دون وجه حق، مما دفع كارد إلى اتخاذ الخطوة الاستثنائية المتمثلة بتحديد موعد لزيارة غوس في مقر قيادة وكالة الاستخبارات المركزية.

قال كارد لغوس: "إن الرئيس اختارك أنت، لا بات موري، لإدارة وكالة الاستخبارات المركزية".

رد غوس: "لا يعدو كونه مساعداً لي".

تابع كارد كلامه قائلاً: "أنت مفصول، يا كارد، عن المبنى. يبدو أن الأمور كلها خاضعة لإدارة بات موري. هيا اخرج من المكتب هنا على الطبقة السابعة، تجول بين المكاتب وتفاعل مع الناس في المبنى، تناول الطعام معهم في الكافتريا، برهن على انك القبطان المسك بالدفة، ارفع المعنويات، اربت على الأكتاف، كن واحداً من مشاة الطوابق".

"مقترحات وجيهة" قال غوس.

واصل كارد نصائحه: "تواصل مع مدراء وكالة الاستخبارات المركزية السابقين - مع بوب غيتس، بل ومع الرئيس الحادي والأربعين بوش. وتحدث مع آخرين من أمثال الأميرال ستودمان، الذي سبق له أن كان مديراً لوكالة الأمن القومي (الإن اس ايه) ونائباً لمدير وكالة الاستخبارات المركزية. جميعهم يتحدثون. اتصل بهم. استقبلهم في مكتبك والتمس نصائحهم". أحس كارد كما لو كان يزود غوس بتوجيهات أساسية في القيادة إذ تابع يقول: "تعاون تعاوناً وثيقاً مع مدير مكتب التحقيقات الاتحادي (الإف بي آي) بوب مويلر، وابنِ شبكة علاقات مع حشود العاملين في جهازي أمن الوطن والدفاع".

قام كارد بإبلاغ الرئيس عن زيارته لوكالة الاستخبارات المركزية لتزويد غوس ببعض التوجيهات في مجال الإدارة.

علق بوش: "جيد، جيد، جيد. مسرور أنا لأنك فعلت ذلك".

في تشرين الأول/أكتوبر 2004، كتب رئيس الوزارة المؤقتة العلاوي رسالة إلى الرئيس بوش. أفاد العلاوي بأنه كان يجري نقله إلى جميع الأمكنة التي يزورها بطائرة عسكرية ضخمة تحمل عبارة "سلاح الجو الأمريكي" بأحرف كبيرة. لعل تلك ليست، بالتحديد، صورة عراق حر ذي سيادة التي كانت الولايات المتحدة راغبة في أن تعكسها. ماذا لو حصل على طائرة تخصه هو؟

طُرح الموضوع في اجتماع مجلس الأمن القومي، وأوضح بوش رغبته في تمكين العلاوي من امتلاك طائراته الخاصة. بعد الاجتماع مشى فرانك ملر خارج قاعة الاجتماعات مع رئيس هيئة الأركان المشتركة ونائبه.

قال ميرز موجهاً كلامه إلى بيس: "ليكن ذلك!"

مرت أسابيع، ولم يكن ملر قد سمع شيئاً. فاتصل ببعض معارفه في جهاز رئاسة الاركان المشتركة.

جاء الرد: "نعم، الأمر على ما يرام. البريطانيون يتولون الآن مهمة نقلهم من مكن إلى آخر".

"لا أستطيع أن أهضم هذا" قال ملر لنفسه. "لا، ليست تلك هي المسألة. ليست القضية قضية إحلال سلاح الجو الملكي محل سلاح الجو الأمريكي". كان الموضوع هو جعل طائرة العلاوي طائرة عراقية.

"الآن بات الأمر مفهوماً".

بضعة أسابيع أخرى مرت. تمت عرقلة الخطة الآن من قبل وزارة الخارجية القنقة إزاء احتمال انتقال تكنولوجيا عسكرية أمريكية حساسة إلى حكومة أجنبية. أخيراً، نهاية شهر كانون الأول/ديسمبر، جرت إعادة طلاء ثلاث طائرات من طراز سي - 130 مع إبراز العلم العراقي على الذيل.

رأى ميرز أن ذلك لم يكن رقماً قياسياً رديئاً من حيث السرعة. فترة الأشهر الثلاثة كانت إنجازاً. غير أن ملر عَدّ الأمر مثيراً للسخرية، أمر تطلب تنفيذ إيعاز رئاسي بسيط بالروح التي صدر بها مدة ثلاثة أشهر. وبطء السلحفاة هذا لم يكن بسبب عدم الاكتراث - رغم أن ملر رآه غير ذلك أحياناً. كان السبب كامناً في عدم تحميل المسؤولية لأشخاص معينين في الكثير من الأحيان.

نجحت شكاوى ملر، أخيراً، في لفت بعض الأنظار في البنتاغون.

اتصل ميرز ليقول: "لدينا خطة رئيسة".

هرع هادلي إلى البنتاغون للاطلاع، مصطحباً ملر وأوسليفان. ألقى رئيس إدارة الخطط والسياسة شكيب شارب محاضرة تضمنت 60 أو 70 نقطة بحاجة إلى إنجاز، برأيه، في العراق. كانت تلك قائمة مطولة وثقيلة أخرى لجملة قضايا ذات علاقة بالبنية التحتية والأمن. كانت البنود معلمة بالأضواء الحمراء، الصفراء أو الخضراء المألوفة المشيرة إلى التقدم المزعوم.

في نهاية اجتماع البنتاغون، توجه هادلي إلى ملر قائلاً: "هاك، يا ملر، خذها. أنت أيها المولع بحفظ القوائم. خذها!"

كان ملر يعلم بأن لدى وزارة الخارجية قائمة مشابهة بل مماثلة. أمور كثيرة في القائمتين كانت متطابقة - أهداف جديرة مثل جعل الشبكة الكهربائية تعمل، تنفيذ

التمديدات الصحية، وتمكين العراقيين من العودة إلى العمل؛ التأكد من وجود ممثلين للسفارة مع كل من القادة العسكريين مع قيام كل ممثل سفارة باصطحاب شخص من اليو اس ايد (USAID). غير أن القائمة لم تُختزل قط إلى ثماني أو عشر نقاط ذات أولوية.

الأمير بندر ومساعده رحاب مسعود عقدا ما يزيد على أصابع اليد الواحدة من الاجتماعات مع الرئيس بوش في 2004. ظلت معتقدات بوش الدينية العميقة تطفو على السطح المرة بعد الأخرى، وهو يتحدث عن إيمانه وعن علاقته بالرب. دأب رئيس الجمهورية على تسليط الضوء على حقيقة يقينه من أن سلطة عليا، مشيئة سماوية، كانت تتولى رعايته وتهديه سواء السبيل. قال: "استلهم الربَّ عبر الصلاة" وأتى على ذكر عدد من المرات التي التمس فيها مثل هذه الهداية وما لبث أن نالها.

أضاف بوش أن الرب كان قد اضطلع بدور مهم في حياته وأن الصلاة كانت عنصراً ذا شأن في حياته الروتينية اليومية. قال إنها تساعده، وتمنحه الراحة. بين مدى إحساسه بالأعباء التي ألقاها الرب على كتفيه بوصفه رئيساً للجمهورية. أقر بوش بتعويله على إيمانه في تجاوز الصعوبات.

كلما كان الرئيس يتحدث مع ولي العهد كان يشير إلى إيمانهما الراسخ المشترك بالله. أرسل ولي العهد دعاء إلى بوش وقد استخدمه الأخير كما قال بندر.

أضاف الرئيس: "لعل هذا هو أثمن شيء سبق لي أن حصلت عليه".

خلال الشهرين السابقين للانتخابات الرئاسية، كان بوش سيغرق في حمأة مواصلة الحملة دون توقف. قررت رايس أن واحداً من ثلاثي رايس نفسها، هادلي وبوب بلاكول، كان سيتعين عليه أن يسافر مع الرئيس في جولاته كلها.

وبما أن رايس كانت تلقي خطاباتها الخاصة في أرجاء البلاد - مضطلعة بدور إشكالي ملتبس بالنسبة إلى أي مستشارة أمن قومي - وكان هادلي أكثر انخراطاً في أدق تفاصيل إدارة مجلس الأمن القومي، فإن واجب السفر مع جولات الحملة الانتخابية كان من نصيب بلاكول. كان يستيقظ في الساعة الرابعة والنصف من صباح كل يوم ليتمكن من استعراض تقرير الرئيس اليومي مع وكالة الاستخبارات المركزية قبل وصوله إلى بوش. بقي اهتمام بلاكول متركزاً على ما إذا كان أي شيء في هذا التقرير الرئاسي مؤهلاً لعرقلة الحملة. ما الذي كان هناك بارزاً في الأجواء على نحوٍ مفاجئ بوصفه

قضية انتخابية؟ حرص على إيلاء التقارير الاستخباراتية حول احتمال وقوع هجمات إرهابية في الولايات المتحدة اهتماماً استثنائياً.

كانت الحملة الروتينية تبدأ بعد استماع بوش إلى التقرير الرئاسي اليومي - الأمر الذي كان يستغرق نحو 20 إلى 25 دقيقة قبل الساعة السابعة صباحاً. وبعد الاستماع إلى التقرير كان الرئيس وحاشيته يتوجهون إلى قاعدة آندروز الجوية. عادةً كان ثمة برنامج لستة أو سبعة أحداث في عدد لا يقل عن الثلاث من الولايات، مع قيام الحوامات بنقل بوش من حدث إلى آخر. فترات التوقف كانت تدوم في الغالب ساعة على الأقل. كان بوش يحط على الأرض، يلقي خطابه ثم يعود إلى الجو.

كانت كارن هيوز، مساعدة بوش ومستشارة اتصالاته القديمة، تقضي وقت السفر عاكفة على تسجيل ملاحظات بوش وإعادة كتابة خطابه الدعائي المكرور. أما كارل روف فكان حريصاً على إقحام استراتيجية حملة محددة على الرئيس ورَوْز مدى تأثر الزيارات الرئاسية في ولايات المعركة الانتخابية الرئيسة.

في إحدى المناسبات قال روف لبوش: "إذا ذهبت إلى هذه المحطة في أوهايو فإنك تستطيع الإمساك بطرق وست فيرجينيا".

فوجئ بلاكول بعدم وجود أي وقت فعلي لمناقشة الخطة أو السياسة. ففي ما بين المحطات أو في الجو، حين كان العراق يُطرح، فإنه لم يكن يثار، على الدوام، إلا عبر موشور الحملة الانتخابية. ما الذي كان المرشح الديمقراطي، عضو مجلس الشيوخ الماساتشوستسي جون كري، قد قاله في اليوم السابق عن العراق؟ ما الذي كان قد حدث في العراق تلك الليلة مما قد يترك تأثيراً في التماس الرئيس إعادة انتخاب؟ بوصفه منسق شؤون العراق في مجلس الأمن القومي ربما كان بلاكول يعرف عن الحرب في العراق مقدار ما كان يعرفه أي شخص في البيت الأبيض. كان قد أمضى أشهراً في العراق مع بريمر. أما مع الحملة فلم يكن إلا بوصفه جزءاً من جهاز سياسة العمل لإعادة الانتخاب. لم يبادر بوش، ولو لمرة واحدة، إلى سؤال بلاكول عن حالة الأمور في العراق، عما سبق له أن رآه هناك، أو عما ينبغي فعله. كان بلاكول شديد الاندهاش إزاء التركيز الكامل والشامل والمتواصل مع دوران عقارب الساعة على كسب الانتخابات. لا شيء آخر بدا قريباً منه.

في الأيام والأسابيع التي كانت قبيل موعد الانتخاب، تصاعد العنف في العراق. فالأرقام السرية المصنفة أظهرت أن عدد هجمات المتمردين في العراق كانت قد طارت

إلى السماء، من نحو 1750 هجوم أو نحوه في حزيران/يونيو وتموز/يوليو إلى أكثر من 3000 في آب/أغسطس. في أيلول/سبتمبر كان ثمة نوع من الأمل، لدى تقلص عدد الهجمات إلى ما لا يزيد إلا قليلاً على 2000، غير أن العدد ما لبث أن قفز من جديد إلى نحو 2500.

كان العنف الآن عشرة أضعاف ما كانه حين حط بوش على حاملة الطائرات في أيار/مايو 2003 وأعلن أن القتال الرئيس قد انتهى. وحدات جيش وشرطة عراقية جديدة متدحرجة من مراكز التدريب كانت تتعرض للذبح. كان المتمردون قادرين على الوصول إلى معلومات موثوقة وعلى الاستناد إليها في تحركهم. ففي إقليم ديالة، على مسافة نحو 100 ميل شمال - شرق بغداد، نجح متمردون متنكرون بزي الشرطة العراقية في إقامة حاجز زائف يوم 23 تشرين الأول/أكتوبر. قاموا باختطاف 49 جندي عراقي جديد من إحدى الحافلات، أجبروهم على الانبطاح، وأعدموهم بإطلاق النار على رؤوسهم. بين 30 و50 بالمئة من جميع الوحدات العراقية المدربة ذابت وتلاشت؛ عاد المتدربون إلى بيوتهم.

رأى بلاكول بوضوح أن الأمور لم تكن على ما يرام. منذ أكثر من سنة كان يعاني من الحيرة والارتباك إزاء مشكلة عدم وجود أي استراتيجية عسكرية. مرة بعد مرة، تحدث بوش عن استراتيجية عراقية في خطب حملته، غير أنه لم ينبس ببنت شفة عن أغياء محددة. تحدث عن جملة أهداف، عبر عن تفاؤله وتصميمه، وألقى خطباً نارية مفعمة حماسة. في 23 أيلول/سبتمبر قال بوش في خطاب ألقاه ببانغور المينية: "لدينا استراتيجية تقول لقادتنا: تكيفوا مع الظرائق المناسبة ميدانياً. مع الطريقة التي تكفل النصر، مع الطريقة التي تضمن الوصول إلى النتيجة الناجحة التي نريدها جميعاً؛ فالأسلوب الذي يؤمن العراق ويعيد قواتنا إلى الوطن ليس هو أسلوب الذبول أو الوهن أو التردد أو إرسال الإشارات الملتبسة إلى العدو. يمكننا أن نحزن، ولكننا لن نتزحزح ولن نتردد".

سبق لبلاكول أن درس مادة الاستراتيجيا بجامعة هارفارد. وهذه المادة تنطوي على سلسلة من التحركات لتحقيق هدف معين كما تتطلب الإجابة على جملة من الأسئلة مثل: ما الذي سيجري عمله؟ من الفاعل؟ متى؟ أين؟ كيف؟ ورئيس الجمهورية الذي كان بلاكول يحبه ويحترمه قائداً سياسياً، ظل، بدلاً من كل ذلك، يكثر من الكلام عن

الكسب والأهداف. ولكن "الأحلام أو التطلعات ليست استراتيجية" كما كان بلاكول يدرّس طلابه في غرف الصف. توصل بلاكول إلى استنتاج يقول: لا تتوفر الإدارة على أي استراتيجية.

بيّنت رايس بوضوح أن سلطتها لم تكن تمتد إلى أي من رمسفلد أو الجيش، فبقي بلاكول محجماً عن إحراجها بالأمر. ومع ذلك ظل يتساءل عما يحول دون مبادرة الرئيس إلى تحدي الجيش. لماذا لم يقل للجنرال أبي زيد في نهاية أحد لقاءاتهما الفيديوية: "لنعقد لقاء آخر يوم الخميس يا جون، وما أريده منك لا يعدو كونه أن تتفضل بشرح استراتيجيتك العسكرية الهادفة إلى تحقيق الانتصار، وليستغرق لقاؤنا ساعة ونصف الساعة".؟

غياب الاستراتيجية في العراق والوضع المتزايد سوءاً على الأرض لم يشكلا أي ضغط أو أي مسألة ملحة في الحملة. لعل جزءاً من السبب يعود إلى السياسة الحاذقة. فالجمهور كان يطلع على أحداث عنف محددة شديدة الإثارة عبر التقارير الإخبارية. أما الأدلة الفعلية على مدى تدهور الأوضاع والأمور - جملة البيانات والاتجاهات ذات العلاقة بالعنف، أعداد الهجمات المعادية ومدى فعاليتها - فكانت تتعرض للكتمان والتصنيف بعيداً عن أعين الجمهور الناخب.